



صافي ناز كاظم
صورة صدام



صورة صدام

صورة صدام

صافى ناز كاظم

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧
حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٩٧ كوينش النيل ، روس النرج ، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥

www.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للنار:

أ.د. أحمد شوقي

أ.د. أحمد مسجور

أ.د. جلال أمين

شوقي جلال

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمى

المدير العام:

د. فاطمة البودى

الغلاف: أحمد إلبايد

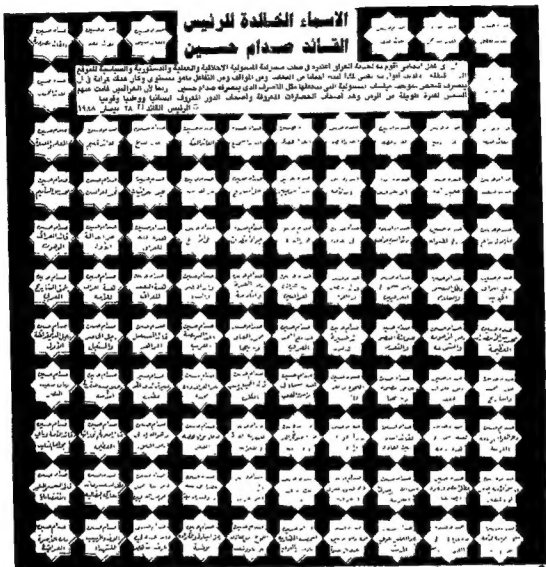
رقم الإيداع ودار الكتب المصرية: ٥٥٠٩ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى: ISBN: 978-677-6231-01-6

صورة صدام

صافي ناز كاظم

دار العين للنشر



طبع بوزارة الثقافة والإعلام برقم ١٧٠ في ١١/٩/١٩٩٠

هذه هي أسماء صدام حسين التي أراد أن يحاكي بها الأسماء
 "الحسنى" ! وقد طبعتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية في عهده برقم
 ٢٧٠ بتاريخ ١١/٩/١٩٩٠

المحتويات

٩	احتلال صدام للعراق ... لم يكن سراً !
١٥	شهادة لم أكتبها حتى لا يأثم قلبي .
٤٧	(إنلأصت) كما يقول أهل العراق !
٥٣	رد غيبة الأستاذ ميشيل عفلق
٥٧	يا سلام سلم الحبيطة بتتكلم (يا له من منطق)
٦١	ولكن عذارى العراق لا بواكي لهن !
٦٥	العراق يدخل مرحلته الحديثة من الملاحم والفتن .
٧١	صورة صدام .
٧٥	من سفاح إلى سفاح .
٧٩	ملاذ العراقي : قاتل عند كل زاوية !
٨٣	رب مستمع والقلب في صمم !
٨٧	أمريكا تخرج أضغاثها .
٩١	يتعاطفون مع السفاح ليشتبهوا بالرحمة .
٩٧	حاكموا صدام بقانون صدام !
١٠١	منصور رجباني وفن الخصومة مع الطغاة والغزاة .
١٠٧	من هم " الأجانب " ومن هم " أهل الدار " ؟
١١١	ماذا قال نجيب سرور في ملك الشحاتين ؟
١١٥	يا أهل ودي ساعدوني .

- ١١٩ المغول يكرمون جنكيز خان ؟ ولم لا ؟
- ١٢٥ العلامة محسن عبد الحميد وجنازة العصر .
- ١٢٩ الدم بالعراق الآن غير مقطوع من منبعه الأول .
- ١٣٣ حاشا لله يا أستاذة عائشة : صدام هو موسوليني وليس أبداً عمر المختار !
- ١٣٧ جرائم واغتيال وقتل وتفخيخ بالقلم والكلمات .
- ١٤١ تأمل في حديث رغد صدام حسين في ذكرى سقوط والدها .
- ١٤٥ الفئران تلعق من دماننا حساءها .
- ١٥١ معذرة ولكن : ماذا يوسعي أن أقول ؟
- ١٥٥ تهديد الوحوش غير المرئية .
- ١٥٩ إيش لونك يا مظفر النواب ؟
- ١٦٣ الحكم بإعدام صدام حسين : يااه هسة طخت ؟
- ١٦٥ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلمكم تفلحون .
- ١٦٩ اللهم إني بريئة من بيان نقابة الصحفيين المصريين .
- ١٧٣ هل تكون أم كلثوم مسئولة عن مرض حب الطغاة ؟
- ١٧٧ علي حسن المجيد الملقب بعلي الكيماوي يتفوق على جاتكيز .

احتلال صدام للعراق .. لم يكن سرا !

قال الشهيد سيد قطب في يوم من أيام تاريخنا : " ذهب الانجليز الحُمُر ، وجاء الانجليز السُمُر " . مثل هذا المعنى رده الشاعر نجيب سرور في مسرحيته " آه يا ليل يا قمر " صالِحاً : " اللي ياكل حقنا يبقى انجليزي حتى لو كان دمه مصري " ، وأضاف إلى هذه الحكمة مقولة أخرى في مسرحيته " ملك الشحاتين " : " لا أبو مطوة ينفع ولا أبو دراع " .

مرت هذه الكلمات على خاطري ، مع الكثير غيرها ، وأنا أتابع ما يمكن تسميته الآن " المحنة العراقية " . ويمكن بتعديل طفيف ، لا أخرج به عن المعنى ، أن أحسم : " اللي يشرب دمنا يبقى أميركياتي حتى لو كان له وجه عربي " . وتكبر في الشاشة صورة العدو المحتل باللع العراق " صدام حسين " . نعم رحل الأميركي المحتل صاحب الوجه العربي غير مأسوف عليه ، وجاء مكانه المحتل الأميركي ، وما زلنا كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولكن من المؤكد أن مقاومة عدو محتل أجنبي واضح ، أسهل كثيراً من مقاومة عدو محتل بلون الأرضية ،

بالعسكريين الحزبيين ، في قائمة طلابه " عدنان خير الله طلفاح " الذي لم أراه قط ، كنت أقرأ الأسماء لأثبت الحاضر والغائب وأقول : " الطالب عدنان خير الله طلفاح " لا يحضر البتة ، فتسري هممة من الضحك بين الجالسين لأنني لم أكن أعلم أنه ابن خال صدام وشقيق زوجته . حين بدأنا العام الدراسي ٧٩ - ١٩٨٠ ، في ظل صدام رأيت العجب . سألتني الطالبة النجبية ترتجف مثل ورقة في مهب عاصفة . " ست ، اتحاد الطلبة استدعاني ، لابد من الانضمام للحزب أو الاعداد ... ست ، المشكلة ليست إعدامي وحدي " .. ست ، يعدمون الأسرة بأكملها... الانضمام للحزب حرام في عقيدتي ... ماذا أفعل ؟ " . كانت تطلب مني فتوى ، أجبته: " ألسنت مجبرة وقلبك مطمئن بالإيمان ؟ " . كان وجهه سهيلة يشحب كل يوم حتى صارت شبحاً ، تقابلني وتضع في يدي ورقة في تسر ، أقرأها : " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " . ثم تختفي سهيلة . طلبوا منها تقارير تفصيلية عن الأهل والأقارب والجيران ... لا تحتمل ، وتمر بجواري فتاة مسرعة هامسة : " سهيلة نالت شرف الشهادة " . كل صباح أقرأ الأسماء لأثبت الحاضر والغائب . كل يوم غائب جديد يضاف إلى قائمة الغائبين التي تزداد طولاً يوماً بعد يوم : باسم ، عقيل ، علي ، طالب ، نسيم ، محمد ، محمود ، أحمد ، هناء ، رعد ، جابر ، جميلة ... إلى ما لا نهاية له في أسماء المسلمين . وتزداد الهففات المسرعة بالهمم: " نال شرف الشهادة .. نالت شرف الشهادة " . يقابلني الطالب الفلسطيني عند بوابة الجامعة ، كأنه لا

يخاطبني ، بيتسم في مداراة : " الاعدامات شئ بيخوف .. " ، مثل وحش السلعة المسعور ، المنقض من كل اتجاه ، بلا منطق ، ومن دون توقع. أصبح الخوف وباء يتحول الطيبون تحت وطأته إلى قتلة يمارسون الذبح هرباً من أن يُذبحوا ، ولكن لا مهرب حتى لهؤلاء . يأتييني " طالب " - من صف العسكريين الحزبيين - مثقلاً بالذنب ، عقواً مثقلاً بالجرالم ، ينظر إليّ في انكسار بعد محاضرة عن مسرحية شكسبير "ماكبت" يصف فيها أحد أبطالها أحوال بلاده تحت حكم السفاح قائلاً :

" وا أسفاه عليك أيها البلد المنكود ،

لم يعد بإمكانك التعرف على نفسك ،

لم يعد ممكناً أن نسميك أمّا ،

بل قبرنا ، حيث لم يعد هناك

أحد نراه بيتسم ،

سوى الذي لا يدري شيئاً ،

حيث صارت التهديدات ، والتأوهات ،

والحشرجات أموراً غير ملحوظة ، لكثرتها ،

حيث أصبح الحزن العاصف أمراً عادياً

لم يعد أحد يسأل من الذي مات ،

فحياة الرجال الصالحين تنتهي

قبل أن تذبل الورود في قبعاتهم،

ويموتون قبل أن يصيبهم مرض " .

خافئاً يقول " الطالب " مازحاً : " بأي وقت مرّ شكسبير بالعراق ست ؟ " ، ثم يأتيني بعد غياب طويل : " سامحيني ست ، والله الشغل كثير .. هادول الملاعين جواسيس للمجوس ما يريدون يتركون لي فرصة للدرس ، كل يوم وجبات إعدام لمئات وما يخلصون .. والله تعبنا ست ، حتى الحائوتي صار يتذمر .. " ، أنظر في هلع ، وينظر في انكسار ووجع ، يريد أن يوصل إليّ الأخبار بأسلوب الشكوى ، وأفهم بالترجمة القورية أن معنى كلامه هو : " يا سيدتي نحن قتلة نذبح ونقتل أهلنا وأبناء الوطن في مجازر جماعية .. " ، ثم يكمل في سخريّة . " صرت مثل ماكيب ، ما أنام .. سليب نومور .. " ، بعدها يلتفت : " ادعي لسي ست " ، فأقول : " اللهم ارزقه شرف الشهادة " ، فيهرز رأسه في يأس : " وينها ؟ "

كان الشعب العراقي يعرف أن الاعدامات الجماعية هذه صارت شيئاً اعتيادياً ، وروتيناً يومياً حتى أن الأسرة التي يتم اعتقال شاب من أبنائها تندesh لو عاد سليماً لأنها تحتسبه عند الله تعالى لحظة أن يذهب مع رجال الأمن . وكنت أسير في بغداد أكاد أشم الدم وأحس مذاقه حقيقة في حلقي وأنا أبلع ريق . وعندما كنت الأجهزة المكلفة بالإعدام والدفن ، وجدوا طريقة أوفر لهم في الجهد وهي نس نوع من سم الفئران في مشروب مصنوع من اللبن الزبادي (شراب عراقي يتناولونه دائماً خاصة في الصيف) يرغم من يتم اعتقاله ، بتهمة الإسلام أو التعاطف مع الثورة

الإسلامية - التي إندلعت في إيران فبراير (شباط) ١٩٧٩ - على شربه ثم يطلق سراحه ويعود إلى داره ليموت وتقع مسئولية دقنه على أهله .

بعد انتهاء العام الدراسي ٧٩ - ١٩٨٠ ، حُزمت أمتعتي وقلت لعبيد الكلية أنني ذاهبة لقضاء إجازتي الصيفية بالقاهرة . قال لي : " يعتقلوك في مصر " . قلت بسرعة : " عندكم مثل عراقي يقول اللي يشوف الموت يفرح بالسخونة " . أدار وجهه وقال : " في أمان الله " . عدت إلى القاهرة في ٢٩ / ٦ / ١٩٨٠ وأنا مطلوبة على قائمة المدعي الاشتراكي بسبب معارضتي لاتفاقيات كامب ديفيد ، ومفصولة من عملي في دار " الهلال " بقرار من أمينة السعيد في ١١ / ١١ / ١٩٧٩ ، ومع ذلك قلت لمن استقبلني في المطار : " أحن شوقاً لمعتقل القناطر للنساء " الذي استقبلني فاتحاً ذراعيه .

هذا كلام لم أنتظر حتى أقوله اليوم فقط ، فلقد كتبت تفاصيله شهادة لوجه الله في كراسة بتاريخ ١ / ٣ / ١٩٨١ م ، الموافق ٢٤ ربيع الثاني ١٤٠١ هـ ، ولم أجد ناشراً يطبعها لي سوى دار نشر أوبن برس Open press في لندن ، وهي أيضاً التي تفضلت بتوزيعها لتسفي صدور قوم مؤمنين وتذهب غيظ قلوبهم ، تحت عنوان " يوميات بغداد " . وهكذا ، لم يكن احتلال صدام حسين للعراق سراً على أحد ، وليست هناك دهشة أن يقوم بتسليم بلاد ما بين النهرين لأولياء نعمته وأعوان جرائمه : الأمريكان لتكون هذه الخطوة منه : " أم الجرائم " .

شهادة لم أكتبها ، حتى لا يؤثم قلبي

في شهر إبريل ١٩٨٠ وصلت إلى قراري الحاسم بترك عراق البعث الصدامي ، تضامناً مع الشعب العراقي ، حيث كنت قد وصلت إلى بغداد في سبتمبر ١٩٧٥ لأعمل مدرسة لمادة المسرحية بكلية آداب الجامعة المستنصرية ، قسم اللغة الإنجليزية ، وقد غادرت العراق نهائياً في ٢٩ / ٦ / ١٩٨٠ لأصل القاهرة وأنا على قائمة المدعي الاشتراكي المطلوبين للاعتقال بسبب معارضتي لاتفاقيات كامب ديفيد . كان قرار الرحيل يحاصرني منذ انفراد صدام حسين بالسلطة في يوليو ١٩٧٩ وبعد إعدامه كل رفاقه في القيادة الجماعية . كانت التراكمات كثيرة مكثفة منهجرة كالمطر النجس ، لكن الحدث المباشر كان إعدام الإمام الشهيد العلامة محمد باقر الصدر ، وشقيقته الأديبة المجاهدة الأنسة آمنة بنت الهدى ، في ٨ إبريل ١٩٨٠ . كان الحدث قد رددته الأقواء البغدادية في لمح البصر آخذاً أشكالا عديدة من الروايات ، فمن قائل أن الإمام وشقيقته وأمه وأولاده قد تمت إبادتهم جميعاً رمياً بالرصاص ، إلى قائل بأن بيتهم في النجف الأشرف قد حفر حوله خندق غائر يكفل الحصار

التام لمنزل الإمام حيث تم نقلهم ليلاً إلى بغداد ومن ثم إلى حيث نفذ الإعدام . ولكن الرواية التي تأكدت هي أن الإمام محمد باقر الصدر ، مؤلف " البنك اللاروي " و " اقتصادنا " و " فلسفتنا " والعديد الكثير من عيون الفقه والعلم ، قد تم استدعاؤه لمقابلة صدام حسين الذي ساومه بين القتل أو إدانة الثورة الإسلامية الشعبية ، التي قادها الإمام الخميني على أرض إيران فبراير ١٩٧٩ ، ولم يتردد محمد باقر الصدر في اختيار الموت ، الذي كان قد توضحاً استعداداً له قبل تركه بيته مصاحباً رجال الأمن . وسأله صدام : أي أسلوب من القتل تريد ؟ فقال الإمام : أن أذبح كما ذبح الحسين ، ولكن صدام أمر بأن يموت رمياً بالرصاص ، فخلع الإمام الجليل عمامته السوداء مجابهاً رصاص الجلاد المحترف ، لكن يد الجلاد اهتزت من الرهبة ، فتم تكليف جلد ثان فلم يستطع ، مما اضطر صدام إلى أن ينهرهما - أو لعله قتلها - ويقوم هو بنفسه بإطلاق الرصاص وقتل الإمام الشهيد . بعد يومين استدعيت الأنسة آمنة الصدر بنت الهدى ، شقيقة الإمام وتلميذته ، بحجة أن شقيقها يريد لها ، وتم إعدامها بعد إجراءات تتكيل وحشية جعلتهم لا يسلمون جثتها لأهلها رضي الله عنها . وتم التكتم الشديد على هذه الأخبار حتى اعترفت بها السلطة بعد أيام على شكل خبر نشرته مجلة الوطن العربي عدد ١٨/٤/١٩٨٠ - إن لم تخني الذاكرة - يروي باختصار إعدام الإمام محمد باقر الصدر بعد ثبوت اشتراكه في مؤامرة ضد العراق . لكن السلطة الصدامية ظلت متهيبية عاجزة عن مواجهة الشعب العراقي بنشر

الخبر في صحفها المحلية ، وإن رددت في صفوفها اسم الإمام الشهيد مسبقاً بـ " العميل المشبوه " . وكان هذا للجرم الفادح هو مقدمة للإجراءات التي بدأ بها صدام حريه ضد الشعب العراقي بالقتل الجماعي للعلماء والفقهاء والشباب والشابات الذين يساور للنظام الصدامي الشك في ولائهم ، مع الترويع بالطرد والتشريد والتشتيت .

عندما وصلت بغداد في سبتمبر ١٩٧٥ ، لأتسلم عملي بالجامعة ، كانت ما زالت في مهرجانات تمجيد وتفخيم " النصر " الذي أحرزه العراق بتوقيع اتفاقية الصلح التي تمت في الجزائر بين العراق وإيران الشاه . وكان الاتطباع العام الذي شعرت به أن البلد ينعم بالهدوء والأمن والثراء تحت حكم مستقر منذ ١٩٦٨ . ورغم القبضة الحديدية التي كنت أحس وطأتها على وجوه للناس ، البعثيين وغير البعثيين كافة ، إلا أن الأشياء كانت في عمومها تحمل قسماات الرغبات المخلصة في إدخال الطمأنينة على قلب الشعب العراقي ومسح ذكرياته السوداء عن المذابح القديمة والويلات التي صاحبت الصراع بين حكم عبد الكريم قاسم ، وسيطرة الحزب الشيوعي من خلاله ، وبين حزب البعث والمجازر التي وقعت بسبب ذلك الصراع وكبدت الفريقين خسائر دامية في الأرواح وحسرات وأحقاداً غائرة في القلوب .

كان الوعد الذي يحمله الحكم البعثي تحت رئاسة أحمد حسن البكر هو أن يحقق للشعب العراقي ، إلى جوار الطمأنينة والرغد والهناء

المعيشي ، قيادة " الأمة العربية " لاستعادة فلسطين وتحقيق وحدة الوطن العربي . وكان الدور الجديد الذي أخذه الدموي القديم ، أحمد حسن البكر ، هو دور " الأب " القائد الحنون فسيح الصدر ، كبير القلب ، المتجاوز والمتفهم لأخطاء البشر واختلافاتهم ، وكان صدام حسين نائبه القوي - في الثامنة والثلاثين من عمره - يأخذ دور ابنه المطيع ، المتشدد في الحق ، المفتش عن الأخطاء التي تعوق الإنتاج المرجو لعراق قائد ، الذي قد يتهاون مع خطأ غير الحزبي لكنه لا يتهاون أبداً مع بعثي يخطئ ، لأن البعثي هو الكادر النموذجي الذي على عاتقه يقع بناء " الدولة النموذج " - (وكان بعض المشاغبين يمزحون ويقولون " الدولة الفالوذج ") - كنت ألاحظ تشابهاً لا يغيب عن العين بين نغمة وطقس الحياة في مصر تحت الحكم الناصري في الستينيات ، قبل هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ ، وبين نغمة وطقس الحياة في العراق في سنواتها تلك : ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، باستثناء تميز به الحكم البعثي وقتها أن الغناء والتمجيد كان للحزب وباسم الحزب ، بينما كان الغناء والتمجيد في مصر لعبد الناصر ولإسم عبد الناصر ، لكن التشابه فيما عدا ذلك كاد أن يكون متطابقاً خاصة في مرض الفجوة الواقعة بين القول والفعل ، التي لم تغلح الشكشقات والطقطات والרטانة السياسية المطلسة علينا من الإذاعة والتلفزيون والصحافة أن تمحوها أو تخفيها حتى عن الأبله والمعتوه ، ومع ذلك كان هناك شكل من الاسترخاء الذهني استحب الشعب أن يستسلم له بإغماض العين عن الكثير راضياً بحصيلته من

الهدوء النسبي والطمأنينة - بعض الشيء ، بدلاً عن لجج الدماء التي سبح فيها طويلاً ولا يتمنى العودة إليها . وجاءت زيارة السادات للقدس في ١٩ / ١١ / ١٩٧٧ ، فرصة مواتية لنظام الحكم العراقي يشد إليها ويمتنع بها ما قد يكون في صدر الشعب العراقي من غضب ورغبة متطلعة للشجب والإدانة والاحتجاج . وفعلاً نجحت زيارة السادات للقدس وصلحه مع الكيان الصهيوني في أن تعطي الفرصة لكي يضع النظام البعثي العراقي على صدره أوسمة الشجاعة والعفة والكرامة والعشق الأبدي للفلسطين . لكن شاء الله ألا يستمر ذلك الخداع طويلاً ، فما أن جاء عام ١٩٧٨ حتى تصاعد الانفجار الفوار المستمر لغضب الشعب الإيراني الذي توج بالنصر عندما خرج الشاه وسقطت حكومة بختيار العثمانية والمعادية للعرب ، والمتوددة للكيان الصهيوني ، وعاد الإمام الخميني في ١١ فبراير ١٩٧٩ من منفاه الترانزيت في باريس لبلاده الذي اضطر إليه عندما طلبت منه حكومة البعث ، بضغط من الشاه ، أن يكف عن العمل السياسي أو يترك العراق ، الذي عاش فيه ١٦ سنة ، فتركه في شهر أكتوبر ١٩٧٨ ، والخجل يتصبب عرقاً خائباً على جبسين الشعب العراقي ، الذي أفهموه ، عن طريق التريديد المستمر للشعارات الهواء ، أن عراق البعث قلعة الثوار ومأوى مناضلي العالم وحامية حمى الثورات الشعبية على مدار الكرة الأرضية . وبينما كان العالم أجمع يرقب اشتعال الإجماع الشعبي في إيران ضد الشاه ونظامه ورموزه على مدار عام ١٩٧٨ ، كان الشعب العراقي يرقب أشياء مريبة تحدث في بلاده

بعضها مستور وبعضها يطل من شاشة التلفزيون : تهوين لما يحدث في الشارع الإيراني ، وحصار أصم لأخباره المتصاعدة في أسلاك وبرقيات وكالات الأنباء التي تجوب العالم ، مضافاً إلى ذلك الدعوة التي وجهت إلى فرقة ضخمة من فناني الإعلام الشاهنشاهي لإحياء حفلات تموز / يوليو ١٩٧٨ ، ذكرى قيام ثورة الشعب العراقي ١٩٥٨ ! وشاهد الشعب العراقي الاحتفال الثوري لذكرى قيام الثورة من قبل نظام " الدولة النموذج " ، " جوجوش " المغنية والراقصة الشاهنشاهية تغني ثملة منطلقة ، عبر شاشات التلفزيون في عقر دار الشعب العراقي المحافظ ، تؤدي من الحركات الماجنة ما شاعت ، فاقدة تماماً لكل ما يمكن أن يعقلها من رباط أو ضابط أيا كانت نزعتَه ، وتوالى بعدها ، في سهرة استمرت إلى الصباح ، رفيقاتها ورفاقها السائرون على نهجها ، وكبار مسؤولي الدولة " النموذج " فاغرين الأفواه والعيون انبهاراً بالفن الفارسي الذي تنصل تماماً من إسلاميته ولحق ، بجدارة ، بركب الدعارة العالمية . ولم يكتفِ التلفزيون بوخز تلك الليلة الفاحشة في ضمير وعين وقلب الشعب العراقي فبادر ، إمعاناً في المفاجأة والنفاق الديني المثير للغثيان ، إلى بث مقابلة تلفزيونية مع " جوجوش " سألها فيها المذيع عن زيارتها للعبات المقدسة ، ولم تنس جوجوش أن تسبل عينيها في ورع الشيطان قائلة بالعربية المكسرة إنها زارت " النجف الأشرف " و" كربلاء " وقرأت الفاتحة للإمام علي والإمام الحسين وأبي الفضل العباس!

كل ذلك كان يبيت من التليفزيون العراقي والخطوات تتقارب لإخراج الإمام الخميني من العراق ، فلم يكن لنظام حكم أختار "جوجوش" أن يصبر أو يتحمل تنفس آية الله - (قال لي وقتها تلميذ لي أنه كان ضمن الوفد البعثي ، ويتبع أفراد المذهب الجعفري ، الذي ذهب ليقنع الإمام الخميني ، في داره بالنجف الأشرف ، بترك نشاطه السياسي ، وكان رد الإمام بهدوء: اغربوا عني ، لا أراني الله وجوهكم ثائية أبداً ! وأكد لي تلميذي أنه شعر ماعثها بالسعادة والفخر وهو يخرج مطروداً مع وفده من دار الإمام الخميني !) - وبعد خروج الإمام الخميني من العراق بفترة وجيزة نشرت الصحف خبر مرور " الشاهبانو " فرح ديبسا ببغداد ولقائها مع صدام حسين ، ولم تنس هي الأخرى زيارة العتبات المقدسة ! وقتها تساءلت : ما الذي جاء بفرح ديبسا وكيف يقابلها صدام وهي عدوة الشعب الإيراني ، وسمعت " الحفلة الجدلية " التي كانت تحفظ للجميع : " والله إن ما يحدث في إيران يخص إيران ونحن لا نتدخل في شئون إيران الداخلية ، وهناك اتفاقية صداقة تم توقيعها في الجزائر عام ١٩٧٥ مع الشاه لتهدئة الجبهة الشرقية استعداداً للتفرغ للجبهة الغربية ، فلسطين ، القضية المركزية ، حيث أننا لا يجب أن ننحرف إلى الإغراءات أو الاستقرازمات لفتح جبهتين معاً لأن هذا ليس في مصلحة أحد إلا إسرائيل ومن ورائها الإمبريالية العالمية ... إلخ ... إلخ ... إلخ! " وكنت قد حضرت مناقشة بين شباب مصري من المدافعين عن صلح السادات مع الكيان الصهيوني وبين شباب عراقي بعثي كان يكيل السباب

للسادات بدعوى استسلامه وخيانتة ، فقال المصري : " يعني ما تتحققش قويا كده ، طيب ما صدام عمل زي السادات بالضبط . صدام عقد صلحاً مع دولة الشاه المحتلة لأرض عراقية ، والسادات عقد صلحاً مع دولة محتلة لأرض عربية ... خالصين ! " ، وهنا ثار العراقي البعثي ثورة كاد يفتك معها بالفتى المصري ، مردداً مقولة نهائية : " غير صحيح أن إيران تحتل أرضاً عراقية ، وغير صحيح أن صلح صدام مع الشاه كان به تنازلات عن جزر عربية ، وأن هذه الجزر ملكية شائعة ولا قيمة لها على الإطلاق " وكرر الفتى البعثي أن البعث معاد للشاه ويتمنى سقوطه لأنه أحد رموز الرجعية في المنطقة ، ولأنه عدو خطر للنظام التقدمي العراقي ، لكن ما باليد حيلة ، وإنهم مضطرون إلى مهادنته حتى لا تستنفد قواهم العسكرية الضخمة الموفرة لصد العدوان الإسرائيلي وتحرير فلسطين !

لكن كل هذا الكلام لم يصمد طلاؤه الكاذب بعد اليوم الأول لوصول الإمام الخميني إلى أرض إيران وإعلان الجمهورية الإسلامية ، إذ أريد وجه النظام البعثي ، وبداية من شهر فبراير ١٩٧٩ كان على أمريكا أن تحرك خيوط عرائسها في تنسيق سريع .

كانت التلقائية المنطقية للشعب العراقي هي التعبير عن الفرح الغامر لنجاح الثورة الإسلامية وزوال الحكم الشاهنشاهي . وكان هناك نوع من الزهو لأن العراق ساهم في استضافة الإمام الخميني منذ عام

١٩٦٢ ، وإن كان هذا الزهو قد خالطه نوع من الأسف إذ لم يقدر أن تكون عودة الخميني إلى إيران منطلقاً من العراق . وكان هذا الفرع يلوح على جماهير الشعب العراقي بمن فيهم من البعثيين .

- (كانت القاعدة الجماهيرية للحزب معظمها من العمال والبسطاء وهم أغلبية تتبع المذهب الجعفري ويتمركزون كطبقة فقيرة في حي شعبي كثيف السكان في بغداد اسمه حي الثورة ، وهو حي أنشئ مع ثورة عبد الكريم قاسم إلا أنه مهمل تماماً ، فقير الخدمات ، تتحول طرقاته إلى أنهار ممتزج فيها ماء المطر مع ماء المجاري ، لا يجرؤ أحد غير سكانه على تحمل المرور عبره ولو اضطراراً ، وهو يتناقض تناقضاً مؤلماً في خلفه وفقره مع الوجه الآخر المباحي السياسي لبغداد التي تعيش فيه صفوة الحزب مع الترف الجامع بين ترف العصر العباسي وترف العصر الأوروبي والأمريكي المعاصر . وكان يكفي في بغداد أن يشتم الإنسان بأنه من حي الثورة حتى يفهم أنه : فقير ومختلف ومتوحش ولا يقرأ ولا يكتب ! ومع ذلك فكان الحي هو حي القاعدة الجماهيرية لحزب البعث ا) - ولكن فرح الشعب العراقي ، بمن فيهم من القاعدة الجماهيرية لحزب البعث ، لم يلق تشجيعاً من السلطة الحاكمة ولا من القيادة الحزبية ، وساد التجهم والبرود أمام كل مظهر فرح شعبي بالثورة الإسلامية على أرض إيران ، فالتقط الشعب على الفور الرسالة الضمنية في سلوك السلطة والحزب إزاء فرحهم ، وعرفوا أن بدهية الفرع من جانبهم هي بدهية لا بد من أخذ التصريح بها قبل انتاجها ،

وبميكانيكية الدفاع عن النفس التي تشربتها الشخصية العراقية عبر المذابح ، تم إخفاء الفرح فوراً ، وصار فرحاً تحت الأرض يتزامل السكنى مع المقت الذي تجدد للمجموعة الحاكمة وصفوة الحزب ، التي بدأت بدورها تستلهم من غريزتها في حب البقاء أساليبها المتنوعة لشغل الشعب وقاعدتها الحزبية عن فرحه ومقتته . وكان لابد من إيجاد مناسبة تخلق ضجيجاً كافياً يسد مع الكبت كل منافذ الضوء الإسلامي المنهمر من إيران ما بعد الشاه . وهكذا ، وبين ليلة وضحاها ، خرجت القيادة السياسية للشعب العراقي بقرار الصلح مع حافظ الأسد ، عدوهم اللدود الذي لم يكفوا عن رجمه صباح مساء طيلة السنوات السابقة ، حتى اعتقد البعض أن الصلح مع الكيان الصهيوني أكثر احتمالاً من الصلح مع سوريا حافظ الأسد . ومألت الابتسامات شائنة التليفزيون مع الأحضان والتريبات بين أت من سوريا وذهاب من العراق ، وخرجت الحكمة العربية مستمدة من التراث عن صلح العرب ، وسماحة العرب ، وعفو العرب ، وخصام الأشرار الذي لا يخرج الظفر من اللحم . ووسط دهشة الشعب العراقي ، وقاعدة الحزب الشعبية، تم إعلان اتخاذ الخطوات لإجراء الوحدة بين النظامين ولحم الحزب المنشق إلى جسد واحد ، وخرجت الأحاديث بأنه كان على مؤتمر بغداد العظيم الذي وحد العرب ، بمبادرة من العراق ، لاتخاذ موقف صامد إزاء خيانة السادات بأن يحل في أروقته النزاع السوري العراقي لأنه في النهاية اختلاف الود لا يفسد

للعرب قضية ، خاصة إذا كانت القضية المركزية للعرب ، ألا وهي فلسطينيين !

المهم أن الشعب العراقي وجد نفسه بالنهاية في حفلة زار ضخمة ذكرتي بحفلات الزار التي كان عبد الناصر يتفنن في إقامتها كلما داهمه مأزق - (مثل حفل زار بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ التي أقامها ليهرب من مظاهرات الطلبة المحتجة على هزيمة ١٩٦٧ ، ومطالبة الشعب بالسلح للدفاع عن أرضه) - فتحت الحدود بين سوريا والعراق لتزاور الشعبين ، والتتهت سوق دمشق بمستهلكين يشترون بنهم ، والتتهت سوق بغداد بالتحضير لعروض أزياء لعرض الفن البغدادي على أهل دمشق ، ومع الضجيج بدأت التحليلات الرافضة لنظام الحكومة الإسلامية تخرج متوارية ، ثم تسفر عن وجهها رويداً رويداً حتى ظهر الدق كاملاً على دماغ الشعب العراقي قائلاً في صراحة أن ثورة إيران ليست إسلامية ومع غياب القيادة السياسية المننية المطلوبة لم يكن هناك مفر من سقوطها في أيدي رجال الدين . وكان هذا الإعلان بمثابة قرار تحريم وتجريم حب الدولة الإسلامية الناشئة ، وبدأ التلميح بكونها " أمريكية " وأن الإمام الخميني " عنصري " والدليل على عنصريته أنه يصر على الحديث باللغة الفارسية رغم أنه يجيد العربية !

ثم ظهر لنا فجأة البعث العراقي - دونا عن كل الناس - يأخذ على النظام الإيراني الإعدامات الكثيرة ، مشيداً بنزعه البعثية السلمية

المتسامحة العاطرة التي لا تقوى على رؤية الدماء ورؤية إنسان يعدم ، تلك النزعة البيضاء التي كانت تختفي سريعاً في شماتة واضحة كلما تم إغتيال واحد من علماء الدين المجاهدين الصابرين . وعندما أذاعت لندن أن الإمام الخميني حرم الموسيقى ، إلثاث التلفزيون والراديو وسائر الإعلام العراقي بالموسيقى ونزلت الشعارات التي كادت تقرر أن العربي يمكن أن يتهاون في عرضه ولا يتهاون في قرار جائل يحرمه من الموسيقى . وأقيم " المؤتمر الدولي للموسيقى العربية " في بغداد بضجة وبذخ لم تعهدهما من قبل ، ولم ينقطع برنامج المنوعات الخاص بالأغنيات الأجنبية عن ولائه لـ "جوجوش" وبث أغانياتها مع رقصاتها الماجنة في وقت كان يحرم رفع صورة للخميني ، بل في وقت بدأت فيه نفمة بث العداء والكراهية للشعب الإيراني المسلم بدعوى أنه " فارسي مجوسي " ، ولكن صورة جوجوش وأغانياتها ظلت شاهداً على ولاء البعث العراقي وموضوعيته إزاء الموسيقى والقضاء .

عندما حانت احتفالات تموز / يوليو ١٩٧٩ كانت أصابع أمريكا قد قررت خطوة حسم ضرورية لتحويل القيادة السياسية في العراق من قيادة جماعية ، يشترك فيها أحمد حسن البكر مع صدام حسين مع مجموعة من الوزراء وقيادات الحزب البارزين ، إلى قيادة فردية يمسك بها رجل واحد يمكن أن يسكب فيه خمر الغرور ويسر ويطيئش معه عقله

وسلوكه وقراراته . وكانت قابليات صدام واستعداداته القطرية ترشحه لأن يكون الفرد المختار الذي يتم على يديه:

١- التخلص من القيادة الجماعية التي قد تختلف في الرأي ولو على مستوى الولاء المذهبي .

٢- إيجاد مبرر لإلغاء موضوع الوحدة اللعبة بين سوريا والعراق .

٣- تطويق إرادة الشعب العراقي وإرهابه هو والقاعدة الشعبية للحزب .

٤- غربة صفوف الحزب وتصفيته من كل من يمكن أن يكون متعاطفاً مع الثورة الإسلامية مع إرهاب كل من راوده الحنين إلى الإسلام وفكر في العودة إليه .

٥- إسقاط النظام الإسلامي في إيران قبل أن يترسخ وتنمو جذوره .

٦- إشعال حرب صيادة تسحب من إيران الثورة كل العتاد العسكري الذي كانت أمريكا قد تركته يتدفق على إيران الشاه لتحويلها إلى ثكنة عسكرية أمريكية رابضة للدفاع عن إسرائيل ومصالح أمريكا في الخليج . حرب تؤكد أن الثروة العسكرية التي ورثتها إيران الثورة عن الشاه قد أحرقت وبيدت تماماً .

وعلى ذلك ، فوجئ الشعب العراقي ، كما فوجئت القاعدة الجماهيرية للحزب ، في احتفالات تموز ١٩٧٩ بأحمد حسن البكر يعلن في خطابه التقليدي تنازله عن الرئاسة لנائبه صدام حسين بحجة أنه صار مريضاً وتكالبت عليه الكوارث ، وكان قد فقد زوجته ، ويعدها ابنه في حادث

سيارة قتلتها هو وزوجته وأطفاله وشقيقه زوجته ، وكانت الشائعات تدور في بغداد عن أن البكر صار أكثر التصاقاً بالدين وتعلقاً بزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وسامراء وذلك بسبب رؤى وأحلام مزعجة تحاصره أثناء النوم ، وأنه يتوجس الشر دائماً ممن حوله ، حتى أنه أصر في مرة على أن يصاحب ابنه المسافر بالطائرة خوفاً عليه من تأمر لاغتياله .

لم يرحب العراقيون بقرار تنازل أحمد حسن البكر لصدام حسين إذ أحسوا أنهم بهذا سوف يدخلون مرحلة تكون القبضة الحديدية أشد قسوة وإحكاماً ، خاصة وأنه لن يكون هناك نائب قوي ند لصدام حسين كما كان صدام نائباً قوياً ندا للبكر ، مما جعل الكثيرين يقولون أن صدام كان هو الحاكم الفعلي من وراء الستار . لكن القيادة السياسية والواجهة الإعلامية طنطننت للقرار الديمقراطي - (كذا) - الذي تم اتخاذه، والذي إن دل على شيء فإنه يدل على الروح النقية الثورية التي تجعل القيادة السياسية ، ومجلس قيادة الثورة ، والقيادة القطرية للحزب ، قوة مترابطة على درجة من السمو والرفعة لا يصلها إلا المتصوفة والزهاد !

وانتهت الاحتفالات وصدام حسين بأناقته الباريسية وسيجاره الكوبي فرحاً سعيداً باسم يستعرض جماهير الشعب الذي بدأ الشّعراء والملحنون يحفظونه لأول مرة في تقاليد حكم البعث ، أناشيد تدور حول القرد ، الفارس ، السوبر مان : صدام ، صدام ، صدام م م م م م م .. وكان

القضاء قبل ذلك يدور للحزب ، وللمجردات مثل الأمة العربية والقومية والاشتراكية .. ولكن ها هو صدام والناس ترقص وتقني له ولعيونه الجميلة - (كذا!) - وهو يتبختر في حركاته بين مقلد لعبد الناصر ومقلد لنجوم السينما . وهكذا ملئ الكأس وأترع صدام بالغرور .

كان معروفاً قبل تولي صدام حسين رئاسة الجمهورية أن هناك أكثر من شخصية قوية ذات نفوذ في الحزب والقصر الجمهوري ، منهم : غانم عبد الجليل ، عدنان حسين ، محجوب ، محمد عايش ، وآخرون لم أعد أذكر أسماءهم رغم أنهم كانوا أسماء طنانة تدوي في الأذان صباح مساء ، وبعض من هذه الأسماء كانت مقربة للبكر تنعم برضاه وتدليله ، وكانت تشعر أنها مساوية في القامة مع صدام . ولا ندرى نحن هل صدر منهم شيء أخاف صدام وألقى التوجس في صدره منهم ، أم أنه - بأمر من أمريكا - كان قد افترض احتمال معارضتهم له في أمور مستقبلية نوى القيام بها ، المهم أنه شرع في تنفيذ الخطة بإلغاء القيادة الجماعية حتى ولو كان هناك احتمال بأنها ستوافقه أو تهدأه ، على أساس أن الاحتياط واجب كل لص وسفاح . ومع تباشير شهر أغسطس / آب ١٩٧٩ ران الصمت الرهيب على الشعب العراقي وعلى قاعدة الحزب الجماهيرية وهم يستمعون إلى تفاصيل تقرأ عليهم من التليفزيون ثم تعرض عليهم سينمائياً عن خيانة مروعة تم اكتشافها في صفوف المتصوفة والزهاد من كبار قيادة الحزب القطرية والقومية والحكومة .

ووقف صدام في الفيلم السينمائي يبكي حزناً على انتهاك العذرية الحزبية، لكنه سرعان ما جفف دموعه بالمناديل الورقية وهو يجمع شتات عزمته ليقول للشعب العراقي وللجماهير الحزبية مع ومضة خاطفة في عينيه النازيتين : "الذي يخون قومه ليس له منا إلا السيف !" وفي ٨ / ٨ / ١٩٧٩ تساقطت ٢١ رأساً تضمنت كل الرؤوس اللامعة في الحكم والحزب . وكان المفروض أن يكون من بين القتلى منيف الرزاز ، نائب الأمين العام للقيادة القومية للحزب ، وهو أردني ، لولا تدخل الملك حسين فأكتفى صدام بتحديد إقامته ثم سجنه مع إعدام كل مؤلفاته البعثية وتطهيراته الحزبية ، وأنزل صدام بديلاً عنها مؤلفاته الشخصية وكتيباته تمهيداً لاستثنائه بلقب مفكر الحزب وفيلسوفه ومنظره الوحيد ! وكانت هذه المجزرة كافية لإرهاب المنتمين للحزب كافة وإلزامهم الأبد والطاعة الكاملة للمعلم الكبير صدام حسين الذي أثبت عملياً للجميع أن قلبه أشد قسوة من الحجارة وأنه إذا كان قد هان عليه قتل أصدقائه ورفاقه المقربين فإنه بهذا يرفع شعار حكمه الجديد : " من يقف في طريقي ليس له سوى الإبادة ! " وأطبق الشعب العراقي وأفراد الحزب وجماهيره الفم ، لا أحد يقول ما في قلبه وعقله حتى ولو في غرفة نومه همساً في أذن زوجته .

وبداية من هذا التاريخ ٨ / ٨ / ١٩٧٩ ، سيطر صدام على كل مفاتيح السلطة ، الحكم والحزب بقيادتيه القطرية التي تتحكم في الحزبيين

العراقيين ، والقومية التي تتحكم في الحزبيين العرب من الأقطار الأخرى . وتحققت بهذا الأهداف الآتفة الذكر من رقم واحد إلى أربعة ، مما كان مطلوباً لأمريكا أن يتم عبر صدام ، تمهيداً لتحقيق المطلبين رقم خمسة وستة ، وهو إسقاط الحكومة الإسلامية في إيران أو على الأقل حرق العتاد العسكري الذي ورثته عن الشاه ، مخافة أن يستخدم ضد إسرائيل ، التي كان الشاه قد تعهد بحمايتها ، خاصة بعد أن أسقطت إيران الثورة الإسلامية علم إسرائيل واحتفلت برفع علم فلسطين في سماء طهران في تناغم حركي شجي يفوق كل موسيقى البشر عذوبة وجمالاً .

لم يحزن الشعب العراقي على قتلى ٨ / ٨ / ١٩٧٩ لكنه توتر ، كان لسان حاله هو أن الله قد جعل بأسهم بينهم وأن القاتل ليس بأفضل من المقتول والمقتول ليس بأفضل من القاتل ولكن التوتر كان ناشئاً من الإحساس بأن الدم قد عاد والمجازر قد بدأت من جديد .

وبدأت تنتشر في طرقات بغداد ظاهرة ثياب الحداد الأسود - غير العباءة السوداء الزي الشعبي للمرأة العراقية - وتزايدت متصاعدة مع الشهور المتتالية بعد أغسطس ، سبتمبر أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٩ ، ثم بداية من يناير ١٩٨٠ مستمرة حتى وصلت المذابح نروتها اللامعقولة ٨ إبريل ١٩٨٠ حين تم إعدام الإمام محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى آمنة الصدر .

كنت طيلة تلك الشهور أسمع عن الإعدامات الجماعية التي كان يساق لها الشباب المسلم : ٣٠٠ ، ٤٠٠ شاب يومياً حتى قيل ، كما سبق وذكرت ، أن الحائوتي المكلف بدفن الجثث قد تنذر من كثرة العمل المطلوب منه ومن مساعديه إنجازَه في الليلة الواحدة ! وكنت أسير في بغداد أكاد أشتم الدم وأحس مذاقه حقيقة في حلقي وأنا أبلع ريقى ، وعندما كنت الأجهزة المكلفة بالإعدام والدفن وجدوا طريقة أوفر لهم في الجهد وهي دس نوع من سم الفئران في مشروب مصنوع من اللبن الزبادي يرغم من يتم إعتقاله على شربه ثم يطلق سراحه ويعود إلى داره ليموت وتقع مسؤولية دفنه على أهله . وكان شيئاً اعتيادياً وروتينياً يومياً ، حتى أن الأسرة التي يتم اعتقال شاب من أبنائها تندش لو عاد سليماً لأنها تحتسبه عند الله تعالى لحظة ذهابه مع رجال الأمن . هذه الحرب الغادرة التي استحلها صدام وعبيده ضد الشعب العراقي جاءت بنتيجة عكسية لما أراد تحقيقه من خضوع كامل لطغيانه ، إذ أنها ، على غير ما توقع ، أدت التآجج الثوري في صدور مجموعة من الشباب البعثي من حي الثورة الفقير ، والذي كان يقوم بحراسة مقر الحزب بالحى ، بإعلان التمرد على صدام وقيادة مظاهرة تهتف بسقوطه وبحياة الثورة الإسلامية . وجن جنون صدام وهرعت قوات الردع في بغداد كافة وأحمدت المظاهرة بإطلاق الرصاص على الجميع ، ثم بدأت عملية صارمة في تمشيط صفوف الحزب ، وابتدأ النشاط الإعدامى يمتد من إعدام الشباب المسلم المنتمى إلى حزب الدعوة - حقيقة أو إتهاماً - إلى

الشباب البعثي الذي دخل الحزب كاتما لإسلامه مكرها وقلبه مطمئن بالإيمان .

ومع ذلك تنبه صدام - بمجهوده أو بتنبيه ممن يستعملوه - أن الإعدام والعين الحمراء يجب أن يتوازنا قليلاً مع التدليل والتلطّف ، وبدأت جولاته الشعبية في كل مناطق بغداد أولاً ثم من شمال العراق إلى جنوبه . وفي بغداد بدأ بزيارته لحى الثورة القابع في فقره في طي النسيان والإهمال الحكومي والحزبي وحُشد الناس لاستقباله في ترحيب شعبي ، ونقل لنا التلفزيون صدام وهو يقف ببذلته الباريسية الأنيقة وخطابته البطيئة الخنفاء يعترف لأهالي حى الثورة أنه قد تم إهمالهم لوقت طويل وأنهم ضربوا المثل في قوة الاحتمال والصبر على المكاره وسوء الخدمات ، وقد آن الأوان لكي يلقوا الاهتمام اللائق بهم كجماهير كادحة ، لمصالحها قام الحزب وقامت الثورة . ولكنه تدارك قائلاً : ومع ذلك فإن إهمال رصف طرقات حى الثورة ليس سببه كله تناسي مصالح الجماهير الكادحة وخذلها ، لا سمح الله ، ولكن هناك السبب الأهم وهو أن حى الثورة يقوم على بحيرة نفطية ضخمة أرغمتهم على تأجيل رصف وتمهيد الطرقات لكن ، " ما يخالف " ، منذ الآن وبالرغم من بحيرة النفط تحت التربة ، فإن الحكومة سوف تبدأ في رصف وتبليط الطرقات ، لأنه إذا كان أهالي حى الثورة - الذي أسماه فيما بعد حى صدام ! مستعدين للصبر أعواماً فإن صدام لم يعد يحتمل الصبر لهم أكثر ! وتطرق في كلمته لجماهير حى الثورة عن النظام السوري الخائن العميل ، مشبهاً

حافظ الأسد بمعاوية الذي أراد الدنيا أما هو - صدام - فإنه كالإمام علي الذي لم يفكر إلا في مبادئه التي استشهد هو وابنه الحسين في سبيلها ومن أجلها ! وهنا أمسك الشعب العراقي أمعاه خشية القى من فجاجة الكذب وتتن النفاق ، لأنه كان يعرف أن سب معاوية على ملأ حي الثورة ، الذي يتبع سكتاه المذهب الجعفري ، ليس محبة لعلي أو للحسين ، ولكن إخفاء لظالم أشد ظلماً وسفاهة من كل الظالمين الذين عرفهم تاريخ العراق . صارت مهرجانات الزيارات الصدامية لمناطق العراق . البرنامج الطويل الممل المقرر على مشاهدي التلفزيون ، يرويه يوماً في زيارته المقاجة للبيوت والمدارس ، حيث يميل على الأطفال مبتسماً متجسماً : " إيش دا يقول بابا ؟ إيش دا تقول ماما ؟ " - يعني ماذا يقول بابا وماذا تقول ماما - ليتحسس من براءة الأطفال وتلقائيتهم من يعاديه ومن ينتقده ! ومع هذه المهرجانات استمرت وجبات الإعدام في تزايد متصاعد ومتكثف ترهق القلب والصدر والضمير وتحيط النائم بكوابيس لا ينطبق معها جفن ، حتى جاء يوم أول إبريل ١٩٨٠ عندما تريض طالب بكلية العلوم بالجامعة المستنصرية عند مدخل الجامعة منتظراً مع تجمع طلابي لاستقبال الوزير طارق عزيز ومجموعة من زمرة صدام وعندما كان الوزير يتهاى للنزول من سيارته ألقى الطالب قبلة قاصداً قتل الوزير ، انتقاماً للمجازر اليومية ، لكن الوزير لم يصب إلا بإصابة طفيفة وهلع كبير جعله يجري في طرقات الجامعة لا يلوي على شئ ، وقتل طالب وطالبة للأسف ، وتولى الحرس إطلاق الرصاص على الطالب فقتل بدوره على الفور ، وقال الناس إن صدام لما علم بالخبر أصدر أوامره لفرقة

من عساكره بالتوجه إلى بيت الطالب بشارع فلسطين القريب من الجامعة وتم نسفه بمن فيه من أهله وضيوفه وحيواناته ودواجنه . وكان هذا الحادث مبرراً لعهد قطعه صدام على نفسه في خطبة قالها في فناء الجامعة المستنصرية : " والله والله والله ، لأقتص لكل نقطة دم من الدماء الزكية التي سالت على أرض المستنصرية ! " وبدأت مرحلة جديدة من الجنون المسعور .

كانت ذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي على الأبواب في ٧ إبريل ١٩٨٠ إذ تمر ٣٣ سنة على تأسيس ميشيل عفلق له ، عام ١٩٤٧ ، تحت شعارات كثيرة منها تحقيق الديمقراطية (!) وتقديم مفهوم جديد للقومية العربية التي قال عنها أنها قومية أممية لأنها منبعثة من الإسلام ، وهي غير القومية النازية لأنها لا تحدد العربي بدماله وأصوله العرقية ولكنها تحدد العربي بأنه كل من سكن الوطن العربي وتكلم العربية وتوحد مع قضايا الوطن العربي ومصالحه ، ونادى بل احترام حرية الفرد وإنسانيته .. إلخ . وكانت المفارقة مضحكة ومبكية معاً حين رأينا كيف توافق ، مع ذكرى تأسيس هذه الشعارات ، العصف كلية بها ، بل ودهسها تماماً تحت الأقدام ، وذلك خلال مهرجانات الاحتفالات الصاخبة بالذكرى !

كان الغرور قد بدأ يأكُل جزءاً من دماغ صدام حسين وعقله ، وجاء الخوف من تصاعد الحركة الإسلامية ليأكل البقية الباقية . وبدأ

صدام يظل علينا من التليفزيون في أحوال مختلفة مختلطة تظهر - رغم تمسكه برطانة اللغة الحزبية - أن الرجل لم يعد يمثل حزباً أو فكراً - أيّاً ما كان - أو منهجاً . لقد صار مفاحاً ملتأماً بالدماء ويعثرة اللحم البشري . كان واضحاً أن فتيلة أول إبريل ١٩٨٠ ، التي ألقاها الطالب أمام الجامعة المستنصرية ، شارة احتجاج ورفض لمجازر القتل الجماعي للشباب العراقي ، وكان الأولى بصدام - لو كانت لديه ذرة عقل أو مسؤولية فكر حزبي - أن يلتقطها مؤشراً نقدياً يصلح به أحواله أو يتعلم منه درساً ولكن : " ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم " . وفتن صدام كما فتن من قبل نمرود وفرعون وهامان وعبد الناصر ، ومقابل ذلك الحادث الذي جاء كرد فعل غير مدروس لمجازره اليومية ، بحيث يعد هو مسئولاً مسئولية أولى عن الأضرار التي نتجت والدماء التي سالت ، هجم صدام أول ما هجم مطيحاً برأس العلامة الإمام محمد باقر الصدر : ولحد من نذرة علماء المسلمين في عصرنا الحديث ، وتذكرت على الفور ٢٠ / ٨ / ١٩٦٦ في مصر والهجمة الغاشمة التي هجمها عبد الناصر وخسرنا فيها وخسر العلم الإسلامي علامتنا الإمام النابغة الشهيد سيد قطب . هكذا في خلال أربعة عشر عاماً ينقض اليوم والغربان لينتزعوا منا أروع ما أخرجته حدائقنا الحضارية من ثمار ويستبيحوا لأنفسهم ما استباحه النتر والمغول والفجار : ما هو أفحش من حرق الكتب والمكتبات ، ألا وهو حرق الأدمغة والذكاء الذي يخرج الكتب ويعمر الحضارات ويصنع النهضة . وكان قتل الإمام الصدر

يعني أنه لم يعد هناك حياء ، ولم تعد هناك حدود ، ولم يعد هناك معقول ولا معقول ، ولم يعد هناك ما نتوقعه وما لا نتوقعه: كل حرمان الشعب العراقي مستباحة ومهتوكة تحت سنانك الغازي صدام! وخرجت فيسألني العبيد تنفذ للغازي صدام أعرب عملية تفتيش يمكن أن تتم في أي بلد في دنيا الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي ومشارف القرن الخامس عشر الإسلامي : لقد صدر الأمر من الغازي صدام بأن على الشعب العراقي أن يثبت أنه عراقي . وكيف يتم ذلك ؟ هل يكفي أن تبرز شهادة الميلاد التي تثبت أنك مولود بالعراق ؟ هل يكفي أن تبرز وثيقة جواز السفر العراقي ؟ هل يكفي أن تبرز سمات وجهك ولقمة لسائك وواقع وجودك القطعي أباً عن جد على ثرى الأرض العراقية التي يرقد فيها أمواتك ويولد عليها أولادك ؟ كلا ! إن صدام الغازي أكثر دقة في التمييز بين أبناء الشعب العراقي الواحد : أكثر دقة من هؤلاء الذين يحرقون ويطرودون جنساً غير جنسهم وديناً غير دينهم . قال تلميذي ساخراً : " نحن ننفص البلاد مثل الزولية " ! - أي مثل السجادة - فصدام الذي فقد حيائه ، صار يصنع ما يشاء ، لقد صار مطلوباً من كل فرد من الشعب العراقي أن يحلل دمه ليثبت أنه على مر الدهور والقرون لم يختلط دمه بأي نقطة دم إيراني . وحتى إذا جاز هذا المستحيل فإنه كذلك لا يكفي ، إذ لا بد أن يثبت أن " الجنسية العراقية " - التي لم يكن لها وجود قبل إصدار قانون الجنسية العراقي عام ١٩٣٢ على ما أذكر - جاءت لتحل محل ما كان يسمى " رعية عثمانية " وليس "تبعية إيرانية" . أما ما هو الفرق بين الذي كان " رعية عثمانية " والذي كان "تبعية إيرانية" ، فلا

شيء في حقيقته الموضوعية الخاصة بعراقية العراقي : كل ما في الأمر أن الشعب العراقي في غياب قانون الجنسية الخاص به أخذت غالبيته سمة " الرعية العثمانية " مندرجة تحت دولة الخلافة العثمانية ، واختار البعض الإدراج تحت " التبعية الإيرانية " مع حقيقتهم العربية العراقية التامة ، وكان بعضهم يجدها مهرياً من تجنيد أبناؤه ، إلى أن جاء قانون الجنسية العراقي فدخل تحته الجميع " الرعية " و " التبعية " على حد سواء . وبعد كل تلك السنوات بأحداثها العديدة ومتغيراتها التي لا حصر لها ، والتي مات فيها أصلاً من فضل " التبعية " على " الرعية " ومن اختار " الرعية " بدلاً من " التبعية " ، وبعد أن ولد أكثر من جيل لا يحمل ولا يعرف إلا الجنسية العراقية ، يجئ صدام وقد تفتق ذهنه بإعلان حرب لا هوادة فيها على الشعب العراقي ، يتم بها طرد كل فرد يثبت أنه عراقي الجنسية من أصل " تبعية إيرانية " ، يخرجوه من داره بالقوة بالركل والضرب والإهانة هو وعائلته من الجد حتى الحفيد ، ويتم شحنهم في سيارات مكشوفة في ظلمة الليالي الباردة ثم يرمي بهم خارج الحدود في العراق الخلاء بلا غطاء أو طعام أو نقود. وتألقت دوريات في الشوارع توقف المارة تسألهم عن هويتهم ، يعتقل من يثبت أنه من أصل تبعية ، تمهيداً لشحنه وطرده . وصرت لا أسمع من العراقيين سوى الهمهمات المرتبكة تتساعل في فلق : " رعية " أنت أم " تبعية " ؟ وبينما كان يتم تهجير عشرات الألوف إلى الحدود الإيرانية بتهمة كونهم " تبعية إيرانية " ، كان الخوف أن تأتي الأهواء يوماً بتهجير الباقين من الشعب العراقي إلى تركيا لأن أجدادهم حملوا سمة " رعية عثمانية " ! وهكذا وجد الشعب

العراقي نفسه تحت وايل من إجراءات إعدام جديدة لا تطاح فيها الرؤوس إلى الموت ولكن يطاح فيها البيت والعمل والمال وحق المواطنة والكيان الإنساني بأكمله : يطاح إلى خارج الحدود إلى مجهول لا يعلمه إلا الله ، وصادم أثناء هذا كله يطل علينا من التلفزيون يضحك ضحك دراكولا مصاص الدماء ، محيطاً نفسه في الصباح بمجاميع متواصلة من الأطفال يوزع عليهم اللعب والهدايا يلهو معهم ساعات طويلة في محاولة يائسة لجلب لمسات إنسانية تغطي أنيابه الزرقاء التي يقطر منها الدم ، أو ربما ليواصل تجسسه على ذويهم بلعبة : " إيش دا تقول ماما وإيش دا يقول بابا " ! أما في المساء فتراه في التلفزيون كذلك حيث تقام حفلات من الشعر الشعبي يتبارى فيها مجموعة من الأوغاد ، كأنهم اتسلوا وجاءوا من شقوق للثعابين والعقارب ، يصرخون حتى الصباح بكلام يرئ منه الشعر والشعب على حد سواء ، وصادم جالس بينهم سعيد يضحك - لا يزال - ضحكة دراكولا وهو يلوك سيجاره الكوبي كأنه يمصص عظام جمجمة بشرية .

كانت الحكايات تجوب بغداد لتسع القلب :

* هذا البيت أخذت منه الأم لأنه ظهر أنها عراقية من أصل تبعية إيرانية ، أما أولادها فقد ظلوا مع الأب الذي ثبت أنه من أصل رعية عثمانية ، ولم يشفع للأم المطردة وليدها الذي لا يزال يرضع منها .

* هذا البيت - كانوا جيرانني في حي جميلة - به ثلاث شقيقات ليس لهن أحد ، كبراهن تقارب التسعين وصغراهن تقارب الثمانين ، سمعت صراخهن عندما داهمهن رجال الأمن في جوف الليل يصرخن : " وين نروح ... وين نروح " وللرجال ، عبيد صدام يلطمنهن : " اخرسن كلاب أولاد كلاب .. جواسيس المجوس " !

* وهذه الدار ثبت أن الأب من أصل تبعية إيرانية فطرد هو وابنه الكبير أما أبنائوه ما بين ١٨ و ٢٨ سنة فقد تم اعتقالهم بتهمة كونهم من أصل إيراني ولم يتم طردهم لأن الذهن الصدامي المريض تفتق عن وباء إضافي وهو : عدم طرد الشباب ما بين ١٨ و ٢٨ سنة خشية أن يتطوعوا في الجيش الإسلامي لمقاومته ، وبناء عليه يطرد جزء من العائلة ويسجن جزء آخر - يتم دس السم له أثناء الحبس - وتبقى الأم وحدها بالعراق أو تترك الدار خالية تنعي من بناها تمهيداً لاحتلالها واغتصابها من قبل عبيد صدام وزمرته .

* غالبية المسنين يموتون خلال الطريق إلى الحدود وعديد من النساء أجهضن من العناء والحزن .

* صرخات " وين نروح ... وين نروح " تتردد على لسان الجميع ، فالغالبية لا تعرف أحداً بإيران المرحطين إليها ولا تعرف حرفاً من اللغة الفارسية .

* أحد الرجال من المسؤولين عن عملية الطرد والترحيل تراه زوجته وهو يلطم جاره ويشده للترحيل فتصرخ به أمام الجميع : " الله يشل يدك " ! وتتفجر مع الباكين واللاطمين !

* بعض المسؤولين عن عملية الطرد والترحيل يطلبون استعمالهم العنف والقسوة لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك سوف يتهمون بالتواطؤ! - (بالتواطؤ مع الإنسانية ، ومع الشعب العراقي ؟) -
* واحد من حوالة الكلام والرطانة الحزبية ينفي القول بأن الطرد والترحيل يشمل جميع "التبعية الإيرانية" ويقول : هذا غير صحيح ، لقد تم استثناء المسيحي الذي من أصل تبعية إيرانية . وتساءله : ولماذا اتصب الإجراء على المسلمين فقط ؟ فيقول : بالطبع لأن المسيحي مضمون عدم تأييده للثورة الإسلامية ولأنه لا يمكن أن يكون مشاركاً في حزب الدعوة الإسلامي أو أي نشاط إسلامي آخر - (هذا الكلام ليس خرافة ، لقد سمعته بلحم أذني ، وقاله كان يحضر للمجستير في القومية العربية !) - وهذا يعني أن كل تلك العقوبات ، من إعدام وسجن وطرد وتشريد ، لم تكن توقع على أناس ارتكبوا أفعالاً تستحق العقوبة ، ولكنها توقع على مئات الآلاف من الشعب العراقي المسلم - بالذات - لأن هناك احتمال بأن " بعضهم " قد يرتكب في المستقبل هذه الأفعال التي تستحق العقوبة !

أى شريعة هذه التي يطبقها صدام حسين وهو الذي كان يحسب أن يفنخر بجده حامورابي صاحب أول شريعة قتلونية ألفها الإنسان من بنات أفكاره ؟

هذا التساؤل لم يطرحه واحد من الحواة الطبالين الزمارين في الصحافة والتلفزيون وأوراق الحزب ، لم يطرحه أحد ، ولو من باب حفظ اللياقة الجمالية لمواجهة الحزب ووجه العقيدة العقائدية ! لم يتساءل أحد كيف يطرد المسلمون هكذا من ديارهم والدعوة كانت لا تزال مفتوحة - ومعنة في الجرائد - لعودة يهود العراق الذين هربوا بإبرادتهم إلى الكيان الصهيوني ليشركوا في نيج العرب ! وبدلاً عن هذا التساؤل ارتفعت عقيرة الحواة في أجهزة الإعلام بسبب الخميني ونعته بـ " العنصرية " والطائفية والتخلف ، علاوة على التوضيح للشعب العراقي أن الإمام الخميني " جاهل بالإسلام " أما الفقيه العارف بالإسلام فهو الرفيق صدام حسين الذي جمع علماء الدين في البلاد ليعلمهم أن الإسلام لا علاقة له بشئون الحكم وأن الحكم لا علاقة له بالإسلام ، والعمائم المنكسة أمامه تجلس صامئة مستتلة بين شيخ فان وكهل وشاب ولا يفتح واحد فيهم فمه ليقرأ للسلطان الجائر من آيات الله الكريمة من سورة البقرة : " ثم أتت هؤلاء نقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم نظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.. " .

بإجراءات الطرد هذه أصبح الموقف محرّجاً لكثير من المصريين والعرب اللاجئين سياسياً إلى العراق ، أو للذين أقاموا للعمل به منذ

سنوات قبل مرحلة الحكم الصدامي ، لقد فتح الشعب العراقي أبوابه لهم حين كان مستقراً آمناً هو أولاً في دياره يملك أريحية استقبال واستيعاب الوافدين عليه من خارج العراق ليشاركوه العمل والقوت ، لكن كيف يتم ذلك وصاحب الدار واقع بين ذبح وسجن وطرد وقمع ، والذي أضاف إلى صعوبة الموقف أن صدام حسين ظل يردد : " المصريون ضيوفي " . قلت : لا والله لا أكون ضيفتك أبداً ، وكان لابد أن أحزم أمتعسي وأعود للقاهرة ، تضامناً مع الشعب العراقي وآلامه واحتجاجاً على السلطة الصدامية الفاشمة التي اختارت طريق الضلالة والظلمات وواصلت التوغل فيها : أوامر بمنع الطالبات من الزي الإسلامي ، مخبر في كل مسجد لمعرفة الحريصين على أداء القروض ومراقبتهم ، الإرغام القسري للانتماء للحزب ، حتى يصل هذا الإرغام إلى خيار من اثنين : الانتماء للحزب أو الإعدام ، وفي إطار هذه الحرب الضروس ضد الشعب العراقي يشاء الله أن يفتن الظالم أكثر فيعلن صدام أمام الملأ العالمي في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٠ عن " قلدسيته " الآثمة لينقض على إيران بحجة تحرير الأرض العربية والدفاع عن عرب إقليم " عربستان " الذي ذبح وطرد وشرذ بقية عائلاتهم المقيمة بالعراق بحجة أنهم من أصل إيراني . ويستمر في تنفيذ الخطوة السلامة التي أرادتها أمريكا وإسرائيل لسحب العتاد العسكري من إيران ، الذي كان قد تم تجهيز الحكم الشاهنشاهي به لضرب العرب وتمكين الكيان الصهيوني فوق رقابهم . ويتحول ، بعد أن أتهك الشعب العراقي ، إلى بقية العرب المقيمين بالعراق قابلين ضيافته رغم كل شيء ، ويطلبهم بثمن استضافته لهم وحمايتهم من بغض الشعب

العراقي فيجبرهم على الاشتراك في الحرب وإعلان تأييدهم لقادسيته ، وإلا فلهم الطرد بعد التعذيب والإذلال ، وتأتيني ، بعد وصولي للقاهرة ، رسالة من طالب مصري استطاع النجاة والرحيل إلى أوروبا يقول : " ..أخباري : حاولوا جزي مع معظم أو كل الطلبة العرب إلى الاشتراك في الحرب ولكني رفضت ومعني طالب واحد أن نشترك ، فأخذونا يوم أول يناير ويوم ٣ يناير ١٩٨١ ، واستمرينا عندهم حتى يوم ٢٥ يناير وخلال تلك الفترة : ناكل ضرب ونشرب ضرب ونتعلم إن هتكر ما كانش الأستاذ.. لأ .. كان التلميذ لسابق عصره وأوانه قراقوش العراقي . واستمروا في كينا وتعذيبنا ثم رمونا رمية الكلاب على الحدود .. الحدود الأردنية ، فوقعنا مرة أخرى في أيدي المخابرات الأردنية ، وأيضاً قامت بالواجب إلى أن رمتنا خارج حدودها من حيث أكتب لك الآن .

لقد رفضت المشاركة في الحرب لأنني أعرف أنها حرب لنذبح المسلمين في إيران ... وقراقوش العراقي لا يقبل سوى من يلعب معه في الماتش ضد إيران وإذا رفضت تحدث الطامة الكبرى وتجد نفسك في أقبية ومخابئ نسمع عنها في قصص الغفاريات ... نسيت أقول : الناس الموجودة حالياً في بغداد من العرب والمصريين كلهم هتيفه من أول (....) لغاية (....) وكلهم منظرين دلوقت لقادسية صدام ... ولكن معطش يا زهر !"

سأظل شاهدة لا تكتم الشهادة على جرائم صدام ضد الشعب العراقي ، تلك الجرائم التي لا تسقط بالتقادم ، والتي تقف في خندق واحد

شهادة لم أكتبها ، حتى لا ياتم قلبي

مع جرائم الاحتلال الأجنبي للعراق التي يرتكبها جورج دابليو بوش
ورامسفيلد وجنودهما ، وأتساءل من يكون المسئول عن مصرع الطائر
الجميل ؟

الذي ينزع ريشه ومخالبه ويعجزه عن الطيران والدفاع عن
النفس في الليلة الظلماء، أم الذي يرفع عليه الخنجر ويطعنه وهو مشلول
مطروح على الأرض ؟

فكروا معي جيداً قبل الإجابة ، ولنتذكر من الأندلس " الإبادة "
قبل الموشحات والأمجاد .

(إنلأصت) كما يقول أهل العراق !

تعبير عراقي جامع شامل أستحضره بقوة هذه الأيام ، وهو :
" إنلأصت " ! يقوله العراقيون عندما تتشابه الأمور ويختلط الحابل بالنابل ولا يبدو في المعضلة مجال لمعرفة الرأس من القدم . كل الناس تبدو متكلمة إلا صاحب المحنة . كل للناس مقترحة ، ومحللة ، وشارحة ، وقاطعة إلا الشعب العراقي ، الذي عانى من قبل ومن بعد . تتكرر كلمة " شعب موزاييك " ، فتقلب معدتي المغالطة التي صارت اللحن المميز لكل جالس قعر مجلس في ندوة تلفزيونية . لا أعترف بهذا التصنيف لأنه مناف تماماً لما شاهدته على أرض العراق . صحيح أن بالعراق "أصول" لأعراق مختلفة ، وهذا منطقي لبلد مَعْبَر لحضارات من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، لكن آلاف السنين من قبل ميلاد سيدنا المسيح ومن بعده ، كانت كافية لتمزج وتربط وتدمج كل الأنساب والأخلاق ، ليصبح على أرض الرافدين شعب واحد له سماته المشتركة الخاصة به سحنة وقلباً وقلباً ولهجة ومزاجاً ونوازع . صحيح هناك التركمان ، والأكراد ، والكلدان والآشور .. إلخ ، لكن كل هذا صار عربياً منذ زمن طويل . غير

صحيح أن حضرة " حزب البعث الاشتراكي " هو الذي اخترع للشعب العراقي هويته العربية وأجبره عليها ، بل لعل العكس هو الذي نتج ، الذي أساء لرابطة العروبة والعربية التي لمت شمل أهل العراق على مر العصور . العراقي الصابني يفتخر أنه " أصل العروبة " بالعراق . والعراقي "الأرامي" و"السرياني" و"الكلداني" و"الأثوري" كلهم ، بمعتقداتهم كافة ، يؤكدون أنهم " جذر العروبة " المجذر بالعراق مثل النخل . وكل مذاهب المسلمين بالعراق يعلن منتسبوا أنهم "أحفاد" محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحفاد " ابراهيم " صلى الله عليه وسلم ، الذي اسماء المسلمين من قبل . ولا يكف الأستاذ الكردي ، عن تأكيد " وحدة الشعب العراقي " ويصر الطرف الآخر في الجدل - في واحد من البرامج الحوارية - على تفصيلص البدن العراقي إلى أنف وفم وعين وذقن وذراع وساق وقدم . سبحان الله . بل ويمن على الأستاذ العراقي الكردي بأن " صدام حسين " هو " الوحيد " الذي أعطى الأكراد الحكم الذاتي ! ولا يملك الأستاذ المذهب أن يكمل : وما فائدة " حكم ذاتي " والعراق بأكمله في السلخانة ؟

ثم تأتي بعد " موزاييك " مقولة : " الأغلبية الشيعية " ! ألم ينن بعد أن نتقي الله ونتذكر من سورة الروم : " ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون " ؟ إن مصطلح " شيعية " و " سُنَّة " به مغالطة لفظية ، فكل المسلمين على سنة الله ورسوله ، ولا يمكن أن يكون هناك مسلم غير ذلك ، كل أهل الإسلام

"سُنَّةٌ" وتختلف الاجتهادات ، وكما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم :
" اختلاف أمتي رحمة " ، وهذا ما يثبت لنا تماماً يوماً بعد يوم . إذن
فالمصطلح يكون : " مذاهب " ، وكلها " سُنَّةٌ " . وإذا كان هناك تقسيم
" سياسي " قديم في زمن " الفتنة الكبرى " ، فلا يجوز لنا أن ننساق
وراءه بحيث ننتزع من تعداد مسلمي العراق قسماً ونعطيه نسبة ، وتلعبه
الأهواء ورقة يستفيد منها المحتل الغريب . ويل لأمة كل قبيلة فيها أمة .
يقف الشيخ في مسجد الأعظمية ويقول : " نحن أهل قبلة واحدة " ،
ويقف الشيخ في الكاظمية ، وفي النجف ، وفي كربلاء ويقول : " نحن
أهل قبلة واحدة " ، فما معنى اللت والعجن في حكاية "الأغلبية الشيعية" ؟

هذه الأظفر التي تبحث عن الجراح لتحكها حتى تدميها يجب أن
تتطهر وتقلّم نفسها . ولقد تعجبت وأنا أتذكر قول سيدنا الحسين ، قبل
استشهاده في عاشوراء سنة ٦١ هـ ، يستحلف زوجته الرباب وأخته
زينب رضي الله عنهم أجمعين : " لا تُخْمِشْن عليّ وجهها ولا تشقن عليّ
جيباً .. ويا أختي اذكريني في نافلة الليل " ! فكيف عندما يسير موكب
" التطبير " و"ضرب القامة" و"اللطم" يقول الناس : عادت " الحرية "
لشيعّة العراق بعد أن حرّمهم منها صدام لسنوات ؟ أهذه هي " الحرية "
التي كان منها " الحرمان " ؟ لا وعزة الله ! لم يستدع صدام حسين آية
الله " محمد باقر الصدر " في إبريل عام ١٩٨٠ ليساومه على "حرية "
اللطم، بل ساومه بين الإعدام أو إدانة الثورة الإسلامية ، التي قامت في
إيران فبراير ١٩٧٩ ، ولم يتردد العلامة ، مؤلف " فلسفتنا " و"اقتصادنا"

و"البنك اللاروي" وغيرها من كتب العلم والفقه الإسلامي ، في اختصار " الاستشهاد " الذي كان قد توضحاً استعداداً له قبل أن يترك بيته مصاحباً رجال الأمن ، إلى لقاء " يائع العراق " الذي سأله : أي أسلوب من القتل تريد - (ديمقراطية!) - فقال الإمام : أن أنجح كما نجح الحسين .

لكن صدام أمر بأن يموت رمياً بالرصاص في ١٩٨٠/٤/٨ - (وفي نكرهه الثالثة والعشرين بالتام كان سقوط نظام صدام حسين في ٢٠٠٣/٤/٨ ، ليلة إذاعة الأخبار على الملأ صباح ٢٠٠٣/٤/٩) - وبعد يومين استدعيت الآمنة آمنة بنت الهدى ، شقيقة الإمام الشهيد ، بحجة أن شقيقها يريد لها حيث تم تنفيذ حكم الإعدام بها بعد إجراءات تنكيل وحشية جعلتهم يترددون في تسليم جثتها إلى أمها المكولة ، ولم تكن المساومة مع الأنبياء للشاعرة للمجاهدة آمنة الصدر عن " حريتها " في خمش وجهها وشق جيبها ، وهي للداعية العالمية بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب " . وإنني أذكر أن الإمام الخميني حرّم هذه الممارسات التي شاعت بين العامة ، وقال إن كل نقطة دم تسيل من مسلم لا تكون إلا في سبيل الله ودينه الحق .

الأعجب من كل ما سبق هو ذلك التآمر الذي يخطط به الكثير من المثقفين بسبب خشيتهم من قيام حكم إسلامي بالعراق ، ويسمونه " دولة دينية " وهو مصطلح مترجم عن دولة ثيوقراطية ولا نعرفه في إطار عقيدتنا ، لأن الحكم بقتون الله سبحانه وتعالى في الإسلام لا يعادله الحكم الكنسي الذي اشتكت منه أوروبا في القرون الوسطى . وقد قلت

مرة للدكتور لويس عوض لماذا علينا أن نسدد نحن قواثير أخطاء الحكم الكنسي " النثوقراطي " في قرون أوربا الوسطى ؟ وإذا كانت الخلافة العثمانية قد ارتكبت الكثير من الأخطاء التي وصلت إلى مستوى الجرائم في بعض أحوالها ، فإن النظم العثمانية التي ورثت الأرض من بعدها لم تقصّر في المنافسة وتفوقت على العثمانيين بما لا يمكن إنكاره . وبأخذ الغضب مأخذه من أحد الكتاب لأن - على حد قوله - " لم يعد على الناشئات سوى العبايات السوداء والعصائم الليسضاء ، هذه صورة العراقيين الآن . لا عراقي يرتدي القميص والبنطلون في الغالب ، ولا امرأة عراقية ترتدي الملابس الحديثة ، إما هي محجبة ... أو ترتدي العباة السوداء المعبرة عن الانتماء الديني ، اختزال في الأشكال والرموز القديمة ، في البداوة ، في أزمنة منقرضة ... " ، بذمتكم يا أهل الفهم والعقل هل سمعتم عن " انقراض " للعمامة وللعباة السوداء في العراق رصده أحد أو تكهن بـ " إرهاباته ؟ " لماذا يكون ساري الهندية وعمامة الهندي من المسلمات المقبولة والتي لم تنقص من قدر السيدة أنديرا غاندي ، عند مثل هذا الكاتب الغضبان ، ولم يرها معبرة عن رموز قديمة في أزمنة منقرضة ؟ أما المشغولية التي صار الكافة يتدحجون فيها زناد فكرهم فهي : هل جاءت قوات التحالف بحجة تحرير العراق من أجل " النفط " أم من أجل شئ آخر ؟ هذا وهذه يقولان : من أجل النفط ! وهذا وهذه يقولان : لا ... ليس من أجل النفط ! ألا يكفي أنها جاءت لتسيطر ، ليقول كولن باول بلسان إدارته الأمريكية لحكام المنطقة : " اشرب من

هذه القلة ولا تشرب من هذه القلة ! " ألا يكفي أنها قوات تكبل المنطقة لتؤازر الكيان الصهيوني ، ونقول بالفم الوقح : شارون رجل سلام ، وكل فرق المقاومة الفلسطينية والعربية إرهابية ؟ ألا يكفي...؟ إنها جاءت يا سادة من أجل ما هو أغلى وأثمن من النفط ، جاءت لتمسح منا الروح المنتصرة ، لتحولنا إلى بجع مسحور مسلوب الإرادة .

وفوق كل هذا ينجعص ، من قدموه بصفته سفيراً سابقاً بالعراق، ليؤكد أن مقولة الحجاج بن يوسف الثقفي عن الرؤوس التي أينعت وحن قظافها وإته لصاحبها ، مقولة صحيحة وأن العراق لا يناسبه سوى " الحجاج " أو " صدام حسين " لأنه بلد " موزاييك " ولا بد من شدة بالقوة والحزم ! ولا يفرق حضرة السفير السابق بين الحاكم " الحازم " والحاكم "الجزار" ، " السفاح " ، قاتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ...

وإتني والله يا أيها الإخوة أرى السنة قد " لبّخت " وحن سكوتها، وعليها أن تلم نفسها بالتي هي أحسن ... ولك الله يا شعب العراق العزيز .

رد غيبة الأستاذ ميشيل عفلق

كتب الأستاذ الفاضل خالد القشطيني في عموده المنشور بعدد الشرق الأوسط الصادر ٢٨/٥/٢٠٠٣ تحت عنوان " من عقليات البعث " ما يستوجب مني أداء شهادتي لرد غيبة الأستاذ ميشيل عفلق ، موضحة أنني قابلته مرتين وحيدتين في بيته ببغداد نهاية ١٩٧٨ ومطلع ١٩٧٩ وكان ذلك بصحبة صديقتي العزيزة إحسان هاتم بيات ، زوجة الأديب الصديق سامي الدروبي ، رحمهما الله ، اللذين توطدت صداقتي بهما منذ عام ١٩٦٦ ، عندما كان الدكتور سامي الدروبي سفيراً لسوريا بالقاهرة. ولقد استمرت صداقتي بإحسان هاتم بعد رحيل الدكتور سامي ، وكانت تحرص على زيارتي ولقائي بالقاهرة حتى إبان صلتها الوثيقة بجيهان أرملة الرئيس السادات في أيام سلطة السادات التي كنت فيها مفصولة من عملي ومنوعة من النشر ، وخارجة من بيت أبويا وراححة بيت الزعران - (معتقل القناطر يعني) - وعندما سافرت إلى بغداد ١٩٧٥ ، وجدت إحسان الدروبي أمامي في نهاية ١٩٧٨ قادمة من دمشق لتعيد نشر مؤلفات الدكتور سامي الدروبي من خلال وزارة الثقافة العراقية ،

فرحت بها ورحبت بدعوتها حين سألتني : " تحبي تشوفي الأستاذ ميشيل عفلق ؟ " قلت : " أنا بالنهاية صحفية ، طبعاً إذا كان ممكن " . أرسل لها ميشيل عفلق سيارة مخصوصة ، مرت بها علي ، وانطلقنا إلى داره ، ولا أذكر الآن موقعها أو اسم حيها . كنت متوجسة خلال الطريق من المقابلة فأننا لا أرتاح في لقاء " الناس المهمة " . كانت الدار محروسة كأنها تكنة عسكرية أو معتقل خمسة نجوم . وأدخلونا غرفة استقبال مستديرة مهذبة المقاعد ، خالية من ذلك الذوق المتوحش للأطقم المذهبة التي تبدو في بيوت المسؤولين الكبار متأهية للاقتضاض والافتراس .

قلت ملاحظتي لإحسان ، فقالت : " يا صافي ، الأستاذ صديق العمر مع سامي منذ كنا نغص الخبز بالشاي ، دلوقت تحمي بنفسك ! " دخل الأستاذ ميشيل عفلق بعد برهة معتذراً لأنه لم يكن السابق في الغرفة لاستقبالنا بسبب شأن عارض . نحيف ، رقيق ، هادئ ، خفيض الصوت ، كريم في عبارات الترحيب ، يشوش في استقبال الكلام ، أنصت لي جيداً وأنا أهرع بشرح أسباب حماسي للثورة الشعبية الإسلامية على أرض إيران ، وأبين الخطأ في ترحيل الإمام الخميني من العراق - (أكتوبر ١٩٧٨) - وأذكر أنني قلت له : " إن إيران ليست عربية ، ولذلك فإن أقرب أشكال الحكم فيها للأمة العربية هو الحكم الإسلامي الذي بإمكانه أن يساند قضايانا العربية في فلسطين وغيرها .. " ، كان يستمع مبتسماً ، مشجعاً حتى انتهيت من "محاضرتي" ، فقال : " كلامك سليم ، وهذا هو التفكير المنطقي ... لكن ... الإخوة هنا لهم وجهات نظر أخرى .. " قال

هذا بتموجات ألم زاهد في التفاصيل . داهمني لحظتها الشعور بأن هذا الرجل " معتقل " حقاً ، هارب من حكم " إعدام " من حزب " البعث " السوري ، ليتم اعتقاله وتحديد نشاطه من حزب " البعث " العراقي ، وهو " المؤسس لحزب البعث ونظرياته " ، كما قال الأستاذ خالد القشطيني صواباً . أردت تحيته والتريب على قلبه ، مأخوذة بتواضعه وصدقته ، فقلت له : " لأن منهم قسيسين ورهباناً وميشيل علق ! " أشاح بيده : " لا ... لا... لست منهم ... ليس هناك أحد من المسيحيين في هذا البيت سوى زوجتي والكيبية ! " إدهشت وقلت : " إذن ، أبو محمد ، ليس مجرد لقبك الحركي الحزبي " . سكت قليلاً ثم قال : " هذه أمور بيني وبين الله " . لم أزد ، المهم أنه " مؤمن " وليس " ملحداً " ، ولعله كان يخشى الإعلان عن إسلامه حتى لا يتهم بالتفاق والمصانعة ، نعم تلك أمور بينه وبين الله ، أما القول بأن صدام حسين ، وجد مشكلة بعد أن وضع الله أكبر على العلم العراقي ، في أن يدخل العلم الكنيسة فهذا كلام غير صحيح لسببين : أن صدام حسين لم يكن ليجد معضلة في خرق أي قانون أو عرف أو دين ، ثانياً : ما هي المشكلة في أن تتقبل الكنيسة كلمة " الله أكبر " ؟ إن كل مسلم ومسيحي ، صادق الإيمان ، يعرف حق العلم أن " الله أكبر " .

المؤسسان لحزب البعث ، مفكران ، أدريان هما : ميشيل علق وصلاح البيطار ، وكلاهما انتهت حياته بالنفي والاختيال على يد السفاحين الذين اختطفوا " البعث " وجردوه من " الفكر " و " النظريات "

و "الطموحات" الإنسانية ، وحولوه إلى عصابات قطاع طرق يهلكون الحرث والنسل . وإن معارضتنا لفكر البعث وتحليلاته لا تجعلنا نطعن ونغتاب حالمين ، بوحدة هذه الأمة العربية ، وإن اختلفنا معهما ورأيناها مخطئين ، تكفي نيتهما الحسنة ، ويكفي أنهما لم يمتلكا سلطة ، بل " إمتلكتهما " السلطة وقيدتهما وكممتهما ، فهما " ضحايا " مثل سائر الشعب .

" بسم الله الرحمن الرحيم " : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون " . صدق الله العظيم/ المائدة آية رقم ٨ .

وسلام عليك يا " أبو محمد " وأنت في " ذمة الله " ، وهو سبحانه وحده خبير بما كنت تؤمن وتعمل .

يا سلام سَلَم الحِيطَة بَتتكلم (يا له من منطق)

ضحكت وأنا أقرأ رسالة بائع العراق صدام حسين ، إلى الشعب العراقي يطمئنهم أنه بينهم وإن كان شيئاً لا نراه . هذه الرسائل المزعومة تذكرني بعنوان مسرحية قديمة من مسرح الستينيات المصري لسعد الدين وهبة ، كان عنوانها " يا سلام سَلَم الحِيطَة بَتتكلم " ، وكان معناها يتلخص في بيت شعر يقول :

" يا ناطقا من جدار وهو ليس يُرى
اظهر وإلا فهذا الفعل فتان " !

ولأنني من أشد المؤمنين بنظرية المؤامرة ، في هذا العالم الذي تحكمه العصابات والمافيات والنوادي المشبوهة ، تحت رعاية الحقبة الأمريصهيونية ، فأنا ما زلت أميل إلى أن صدام قد " سَلَم وتَسَلَم " وهرب من سراديبه إلى قاعدة أمريكية قبل بداية الغزو الأتجلوأمريكي على العراق ٢٠ مارس ٢٠٠٣ ، وترك وراءه مخزوناً من أسشرطة الفيديو

والكاسيات اللازمة للألعاب المطلوبة بين حين وآخر ، وأراها ألعاباً فسي غاية السذاجة والفجاجة ، ومن العجب أن البعض يصدقها ويأخذها مأخذاً جاداً . إن محاولة لصق مقاومة العراقيين للاحتلال الأجنبي ببائع العراق ، حيلة لثيمة ، لا يستقيم معها منطق ، لو صم المقاومة الشعبية بالصدامية والإلحاح بأن يبيع العراق في تناقض مع للقوات المحتلة ، والتي هي في حقيقتها الامتداد المستمر لاحتلال صدام للعراق منذ ١٤ / ٧ / ١٩٧٩ .

كل هذه الحكايات عن رؤية صدام بعد سقوط بغداد في هذا المكان وذلك الشارع يسير مع إبنه الذئبين يقول : " اثنى كل شئ " ، فيكي قصي ويتشجع عدي ، هذه كلها من حواديث " أمان الغولة " . لقد كشف صدام حسين ظهر العراق وأرشد الأعداء الحلفاء ، حلفاءه ، إلى الأرض والناس ، فكيف لمثل هذا الوغد أن يقاوم أو يقود مقاومة أو يدعو إليها حتى ولو من وراء جدار وفيديو وكاسيت ، وهو الذي تملك الوطن ٢٤ عاماً فلم يرع فيه إلا ولائمة ؟ هذا الذي استباح كل حرمة الشعب العراقي ما له ومال مقاومة لمحتل ، لا يغيب عن أعين أهل البلاد ، يتجول في شوارعهم ، ويفتح دورهم ، ويستذل رجالهم بالمجنزرات والسترة العسكرية والحذاء الثقيل والعنجهية المهيئة؟ وقع البعض في الفخ وتساعلوا : أين الماء النظيف ، أين الكهرباء ، أين الوعود بالتحريرو ؟ وكان لابد أن أنتحب وأنا أردد : كيف ترجون العدل من أيدي الجناة ؟ كيف تتعشمون الخير من البلاء ؟ متى كان يمكن لحدأة أن تسقط الكتاكيت ؟ تعرفون جيداً أنها قوات أجنبية ، فكيف يمكن أن تكون ملاكمة تحرير ؟

إنها الجذب والوباء اللذين أتى بهما صدام ليكملا بعده مسيرة الخراب والتخريب ، إنها الوجه الآخر للشؤم الصدامي فكيف لا تكون المقاومة أهلية عراقية تحك بظفرها جلدها لتتولى بنفسها جميع أمرها ؟

لا يجوز لأحد أن يقع في أحابيل الخديعة التي تفترض التناقض بين قوات الاحتلال وصدام حسين ، بحيث يتصور من يلعن صدام أن من واجبه الدفاع عن قوات الاحتلال ، ويتصور من يلعن قوات الاحتلال أن من واجبه الدفاع عن صدام وتبرير جرائمه ومقابره الجماعية والاعتقاد بأنه : يقود مقاومة عراقية ! ياله من منطق ، ياله من مهزلة !

ولكن عذاري العراق لا بواكي لهن!

معقود لساني من الغيظ أتمتم : " ... ولكن عذاري العراق لا بواكي لهن " . " رغد ورنا صدام حسين " في لجوء وضيافة وشروط : " لن نسئ إلى والدنا ... وقصي وعدي .. و.. " ، لهما كل الحق ، فنحن الذين نؤمن بـ " ولا تزر وازرة زر أخرى " ، و " لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا " ، و " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور " . أما وأن تتحشر أنوف لتخرط على قلوبنا البصل وتقيم مرادفات عزاء لآثمين مجرمين شاركوا في نهب واغتصاب وتشريد وإذلال وخراب ، فهذا ما لا يمكن قبوله . إن التسامح مع نساء صدام وبناته تسامح فيه كرم عظيم من جانب الشعب العراقي ، بالفترض أنهم غير مسئولات عن جرائم الوالد والأشقاء والعشيرة والأعوان ، وإن كن قد قبلن السكوت عن انتهاك حرمت أخواتهن من عذاري العراق اللاتي ظلن طعاماً لا يشبع بطن آلة القتل الجهنمية لتنظام الوالد صدام حسين على مدى ٢٤ عاماً ولا يمكن أن يكن غير عالقات أو داريات بما يدور حولهن على أرض بلادهن ، وهو عذر يكون أفصح من الذنب .

وبعد :

ما معنى هذا الاستفزاز من " البعض " على هذه الأرض العربية، شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، هل يعتقدون أنهم بهذا ، الرثاء والتعاطف مع المجرمين ، يكونون قد أغاظوا قنوات الاحتلال وقدموا " التحدي " اللازم للجبروت الأمريكي و" الصمود " المفتقد للأمة العربية ؟

الحقيقة أنهم يتكاثرون جراح العراق وينثرون فوقها المر والعلقم وما يزيدها التهاباً واشتعالاً وآلاماً خطيرة .

ما زلت أذكر وجه الأم العراقية ، التي جفت من عينيها الدموع ، تقول وتقول فأقول ، وأنا مفري كبدي من العجز : " ابتاهلي إلى الله إنه المنتقم العزيز الجبار " ، فترد : " طول الليل شائلة يدًا " ، في الليالي السود عبر السنوات الطوال كن رافعات الأكف متضرعات إلى السود الحليم ، ولم يكن لدي تصور لشكل العقاب الإلهي الكافي الذي يشفي صدور هؤلاء النكالي والأرامل والمكلومات ويذهب غيظ قلوبهن ، حتى جاءت تلك النهايات العجيبة التي لم تكن تخطر لنا على بال من تعرية وقضح لعصابة لصوص وقتلة جناء يسلمون الوطن بلا دفاع ، ولا يجيدون سوى الاختباء والتخفي للهرب " بجلدهم " وعلى أكتافهم يحملون سرقاتهم من خزان الدولة ، وحين تتم محاصرتهم ، بسبب خيانة لص على شاكلتهم ، يعرفون ساعتها "المقاومة" الخسيسة الوحيدة القطرية

ولكن عذارى العراق لا يولكني لبن!

وهي " الدفاع عن النفس " ، فأين هي البطولة وأين هي البسالة
المزعومة التي يتغنى بها ذلك " البعض " ؟
لقد أهلك الله الظالمين بالظالمين وحرام أن تأخذنا بهم الرأفة .

أين العظة التي تعلمناها من الخسف بقارون ويداره الأرض ،
ويغرق فرعون وجنده ، وبأصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين
والمؤمنات بالحرق والتعذيب ؟ أين العظة التي نتعلمها من الآيات الكريمة
رقم ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ في سورة الأنعام : " قلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا
ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما
ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم
بغتة فإذا هم مبلسون . ففقط دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب
العالمين " . صدق الله العظيم .

والآن : دعونا نستمتع بصرخات الظالم الذليلة : " مملكتي
بحصان ! " للهرب طبعاً ، وليس للدفاع عن الوطن المخذول .

العراق يدخل مرحلته الحديثة من الملاحم والفتن

الإمام الشهيد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - صاحب المقولة الخالدة : " نِعْمَ الحارس الأجل " ، حين نصحوه باتخاذ حارس يحميه من الخوارج ، وعند عتبة مسجده في النجف الأشرف نال حفيده السيد آية الله محمد باقر الحكيم شرف الشهادة ، بعد صلاته الجمعة في غرة رجب الشهر الحرام ، وقد تتوج مشوار جهاده النبيل بنهاية تليق بعالم جليل تؤهله للحاق بركب علماء أجلاء آخرين ، من أسرته ، سبقوه على درب الاستشهاد ، لم يتخذوا حراساً لأن : " نِعْمَ الحارس الأجل " صحيحة مئة بالمئة .

لكن من هذا الذي أحل سفك الدماء في الشهر الحرام ؟ علت الصيحات :إنهم الأمريكان الذين من واجبهم حفظ أمن العراق !
وإنني والله لأجد الغرابة في هذه الصيحات .

لقد تم التنديد الكافي كل مرة ، بعد كل حادثة ، بتقاعس الأمريكان في حفظ الأمن ، ولتفترض أن هذا صحيح ، زين ! يبقى التساؤل : فأين أنتم إذن يا أهل العراق وقد عرقتم أن ما حك جلدك مثل ظفرك ، أين جهدكم لحماية أنفسكم بأنفسكم ؟ هل منعكم أحد من تشكيل فوري من متطوعين للدفاع المدني يهبون للحماية والحراسة ومراقبة الأوغاد ؟

منذ أيام سبقت التفجير الذي أودى بالإمام محمد باقر الحكيم ، والشهداء الذين قتلوا معه ، كانت هناك محاولة لاغتيال عمه العالم سعيد الحكيم نجحت في قتل مرافقيه ، فكيف لم تشرئب الأعناق وترهف الرقابة في حرص لمنع الاحتمالات المماثلة ؟ كيف يتم السماح لسيارات مجهولة لتقف وتأخذ فرصتها عند بوابات مسجد يؤمه الكثيرون من أعداء بائع العراق المخفي المتخفي صدام حسين ؟

لا مصلحة لأحد في قتل آية الله الحكيم سوى صدام حسين ، قاتل السابقين من آل الحكيم ومن آل الصدر وإخوانهم وأتباعهم وغيرهم من أقطار العلم الإسلامي من كل المذاهب - (لدي منذ سنوات سجل ضخ من مجلدين عنوانه " جرائم صدام " يزرخ بالشهداء العظماء والمجاهدين الذين قتلهم صدام حسين ، من شمال العراق إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه ، فجرائم صدام - والشهادة لله - تميزت بالعدالة في الظلم ، ولم

تفرق بين المذاهب ولا الأعراق فقد رأت أهل العراق أمة واحدة تستحق ضربات رسالة صدام الخالدة في متاحف السفاحين !) .

نعم لا غرابة في أن يحاول صدام حسين - وهو يحمل على كتفه زكوية الدولارات المسروقة من مخازن الدولة - دفع أتباعه والمأجورين لقتل آية الله محمد باقر الحكيم الذي أعلن من منفاه في إيران ومن موقعه في قيادة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق ، على مدى ٢٤ سنة ، مقاومته السافرة للطغيان الصدامي .

لا أحد يملك كل هذه القدرة على التخريب والإضرار سوى الهياكل المنحلة من عصابة النظام الصدامي التي ساهم الغباء في إثارتها واستفزازها حين قرر بحماقة لا مثيل لها تسريح الجيش العراقي وطرد كل من انتمى إلى حزب البعث من وظيفته بخراب بيت مستعجل ، لابد أن تكون من بعض نتائج أن يندفع اليائس المطرود والمخروب بيته إلى كل وسيلة يراها إنقاذاً أو ثأراً .

المعروف أن معظم من انتمى إلى حزب البعث كان مجبراً لأسباب مختلفة وبطرق شتى . كتلت الطرقات مسدودة أمام كل مواطن لا ينتمى إلى البعث : الطالب الشاب لا يمكنه مواصلة الدراسة العليا والترشيح للبعثات والعودة لمناصب التدريس والعمل بالجامعات والمراكز الثقافية والإعلامية والعلمية إلا بالانتماء للحزب ، وعلى هذا المنوال يمكنك القياس من أول بائع الكباب والشلغم المسلووق المنقوع في الدبس

وبائع الصحف وما هو أُننى ، حتى أعلى المناصب ، مروراً بحقك في ركوب حافلة " المصلحة " والتمتع بأي حق من حقوق شهيق وزفير المواطنة - (تماماً وأكثر مثلاً ما كان الحال في العهد الناصري بمصر حين كان الانتماء للاتحاد الاشتراكي فرض عين على كل مواطن ومواطنة من المهدي إلى الحد . وأذكر حين أراد العهد الساداتي فصلي ، وآخرين من مؤسساتنا الصحفية ، بدأ الأمر بقرار فصلنا من الاتحاد الاشتراكي - كان الاشتراك فيه بقرشين صاغ تدفع إجبارياً - واستتبع ذلك قراراً آخر بالفصل من نقابة الصحفيين تلقائياً لأن النقابة كانت تشترط لعضويتها عضوية الاتحاد الاشتراكي ، واستتبع الفصل من النقابة الفصل من المؤسسات الصحفية التي تشترط عضوية نقابة الصحفيين ، وهكذا كانت لعبة الحصار اللينة لقطع العيش والمنع من العمل والقتل المعنوي التام) .

مع حزب البعث الصدامي كان الحصار أشد وطأة ، من سائر النظم الاستبدادية التي عرفناها أو سمعنا عنها ، كان الحصار محكماً غاية الإحكام حتى الخنق - مجازاً وحقيقة - ولذلك حين هرب بائع العراق صدام خاذلاً الوطن ، والحزب والعشيرة والأعوان ، كان يجب أن تتطلق حكمة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " لتطمئن العراقي من كل حذب وصوب على أنه لن يسدد عن السفاح الغرامات ولن يحمل العقوبات بدلاً عن المجرمين الأصليين ، وعندها كنا سنرى البجع المسحور الموروط في قمقم الساحر الشرير وقد عادت إليه إنسانيته خارجة من محبس

السرايب البعثية الصدامية ، وكنا سنرى الأيدي التي كانت لصيقة بالحكم
والمناصب هي أول من يرشد إلى فاعلي الجرائم والخرائب والحرائق ،
وكنا سنراهم هم الذين سيأتون ببائع العراق مكبلاً في قفص الوحوش
المسعورة مجلوباً للمحاكمة على رؤوس الأشهاد لتشنقه جرائمه وتطعنه
مخازيه .

ولكن لأن " الحماسة أعيت من يداويها " ، واصل الأغبياء حصار
الذين حاصروهم صدام من قبل ، فلم يكن أمامهم سوى ما تراه من آثارهم
من أفعال " مقاومة " للدفاع عن "نواتهم" وتحت شعار : " أنا وبعدي
الطوفان " و" بعد رأسي ما طلعت شمس " !

وهكذا يدخل العراق مرحلته الحديثة من " الملاحم والفن " .

صورة صدام

غير صحيح أن الأديب والفن العربي تجاهلا للطغيان الصدامي ولم يعبرا عن وطنه على الشعب العراقي طيلة حقبة السوداء ، الممتدة بتوابعها حتى الآن بصور وأشكال عدة وأمراض متفاقمة ، فأنا أصر على تحية الفنان القذ منصور رحباني ، على عمله الرائع " آخر أيام سقراط " ، الذي تم تقديمه على خشبة دار الأوبرا المصرية مطلع عام ١٩٩٩ ، وفيها يصور نموذج الحاكم السفاح الطاغية الذي مهد لدخول المحتلين وطنه ، وتعهد المخرج أن يحاكي الممثل الذي يؤدي دور الطاغية ، حركات وإيماءات صدام حسين وابنه عدي . كما أننسي أحسب أن أنوه برواية الكاتبة المصرية " نعمات البحيري " التي صدرت عن سلسلة روايات الهلال ديسمبر ٢٠٠٠ تحت عنوان : " أشجار قليلة عند المنحنى " . هذه الرواية وثيقة أدبية بليغة ترصد بدقة الهوان الذي عاشه العراق تحت الحكم الصدامي ، بل كذلك الهوان الذي عاشته القوافل المصرية التي أغرتها الدعوة للعمل بالعراق في ظل حكم انتهج الاستعباد والاستبداد مبدأ وعقيدة . بطل الرواية " الأنا " المتكلمة ، شابة مصرية

اسمها" أشجان المصري " تزوجت من شاعر سافرت معه إلى بلده العربي - مفهوم أنه العراق - تتصرف أشجان المصري بتلقائية المصرية التي لا تحسب حساب أجواء التريص والمراقبة والهيمنة التي يفرضها نظام حكم البلاد على شعبه ، في سيطرة كابوسية لا فكاك منها . تلقائية الشابّة المصرية نابعة من خلو ذهنها التام - إلى حد السذاجة - لتصورات الكيفية التي يمكن أن تسد بها النظم الديكتاتورية المنافذ على الناس (في وطأة شديدة من كتم للأفاس) حتى تزرق الروح تملأ . رويداً رويداً تكتشف أشجان المصري النفق الرهيب الذي صارت بداخله ومن هنا يبدأ بحثها المستميت للخروج والفرار . أهم ما في هذه الرواية هو التصوير الدقيق (والنقل الأمين) لمأزق الآلاف من المصريين البسطاء ، الذين خرجوا من ديارهم طوعاً وبإغراء البحث عن الرزق الأوسع ، فوجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى عبيد مسلوبى الإرادة والحرية ، بعد أن استرقهم نظام الدولة الشقيقة ، بالاستيلاء على وثائق سفرهم وبطاقات هوياتهم ، وتسخيرهم في مهن جمع القمامة ، وكسح المجاري والسباكة ، وسائر الأعمال التي ينظر إليها أهل البلد على أنها أعمال حثالة البشر . " أشجان المصري " هو اسم البطلة ، لكنه في واقعه كان دفتر أحوال لعصر مجنون استولى فيه " الوحش " على " الجميلة " مغتصباً ، ومنتهكاً ، ومهدداً السبيل لعدوان باقي الوحوش المسعورة .

على مدى خمس صفحات من هذه الرواية التي تستغرق ١٦٦ صفحة ، تصف المؤلفة تعمات البحيري" في ألم وطرافة ، الهلع

الذي تولد حين قررت " أشجان المصري " ببساطة مسح زجاج بيتها بورق الجرائد ! تقول : " أخذني عائد من يدي وشدني خلفه وأوقفني أمام صفحة القمامة ، وراح يخرج تلك الكتلة المؤلفة من أوراق وفوارغ وتفل شاي وقهوة ... وبقايا تنظيف خضروات وفاكهة . كانت ورقة الجريدة التي مسحت بها زجاج نافذة الصلاة مبلولة ومطوية داخل نسيج الكتلة . وماذا في ذلك ؟ أن أمسح زجاج البيت بورق الجرائد ؟ كانت نظراته تنتفض بشعر لا تطفله إجاباتي اللامبالية كما تبدو له ، وكنت ما أزال أحتفظ ببعض من وداعتي في استقبال هوس الآخرين ... أجابني بصوت مبحوح أن صورة السيد الرئيس تنصدر صفحة الجريدة . لم أقصد شيئاً مما تخشاه ، مسح الزجاج بالجرائد طريقة أكثر شيوعاً بين الناس في بلدي وبلاد أخرى . بدا عائد وكأن حشداً من كوابيس اليقظة يداهم ، صفوف من الخوف والرعب والفرع ، فراح يفرد لي الصفحة لأرى صورة السيد الرئيس المبلولة والمخدوشة مثل وجه مكرمش ومشوه . وفي لحظة وكأنه تذكر شيئاً ، جرى كالممسوس إلى باب البيت ، يفتحه وينظر يميناً ويساراً ، ثم النافذة ليفتح ضلفتيها ويتبصص في كل الاتجاهات ، ثم يرفع سماعة التليفون يحقن فيها ويضعها . حدث هذا أكثر من مرة . وكأنه يرغب في التأكد من شيء ما " ، ثم تسرد البطلة المحاولات المختلفة للتخلص من هذا "الجرم الفادح" حين تحولت صورة الرئيس المبلولة كأنها جثة قتيل مطلوب التخلص منها وإخفاء آثارها . حاولت وزوجها حرقها فلم تستجب ، بسبب اللبل ، لعبدان الكبريت ،

" أخبرته أن مسألة إلقاء الورقة في التواليت وشد السيوفون فوقها صارت حتمية في ظل غياب بدائل أخرى . مر الوقت وارتيك إحساسي بكل شئ حتى به وأنا وهو نقف محنيين ، نتابع الصورة والماء الغزير يتدفق فوقها . وعلى الرغم من تكرار عدد مرات شد السيوفون ، ظلت الصورة طافية فوق الماء وملامح السيد الرئيس تتبعع وتتبدى وتتضح وكأن الروح قد ردت في الورقة.... وقد صارت ملامح السيد الرئيس أكثر حدة ودقة من ذي قبل وبدت نظراته وكأنها تتوعدنا بشرور أخرى قادمة . دق جرس الباب فأمسكت بعائد وتصلبنا إلى الجدار .. " وتنتهي المغامرة بالسهرة حتى الفجر لانجاز تمزيق الصورة إلى " قصاصات نحيلة وإلقائها في البالوعة! " .

ولم تشعر بظلة الرواية بأى درجة من تأنيب الضمير بسبب ما فعلته بالجريدة التي بها " صورة صدام " لأنها تساعلت : " ... فكيف لا يكون لورق الجرائد دور حيوي في حياتنا غير الكذب والتشويه والتعظيم والتعذيب .. " .

حقاً إنها رواية جديرة بالقراءة على ضوء ما جد من أحداث ومن تطور لموقع "صورة صدام" !

من سفاح إلى سفاح

انتهى عام ٢٠٠٣ بكارثة "طبيعية" حصدت الآلاف في "بم" الإيرانية ، و كارثة "غير طبيعية" أسقطت طقرة على سواحل "بنين" قتلت وأوجعت المئات ، بالإضافة إلى كوارث أخرى نطقت بها الأكسنة ، وكتبته الأقلام ، وسجلتها المجادلات للقضائية : من قاتل بالعربية وقالة : " الحضارة الإسلامية ملئت منذ زمن " ، إلى قاتل بالفرنسية : " لماذا نطالبونا بعدم حظر غطاء الشعر ، بينما لا يمكننا بناء كنيسة في مكة ! " و" شرودر " الألماني يشد على يد " شيراك " بمجامع الحسم العلماني في طمس الهوية الدينية لمواطنيهم من المسلمين على وجه الخصوص ، مؤكداً أن علمانيتهم مؤسسة على ثلاث ركائز : هي الحضارة اليونانية الرومانية ، والديانة اليهودية المسيحية ، وعصر " الأتوار " ، أي " التنوير " ، أي " النهضة " الأوروبية ، والمنطق كره تضريرها الأقدام ، والذين ينعون " الحضارة الإسلامية " ، وينددون بـ " السفلية " العربية ، لا يرون في وثنية الحضارة اليونانية الرومانية موتاً أو عفناً أو سفلية جامدة ، ولا يرون غرابة في مطلب لبناء كنيسة في مدينة ليس بها

مسيحي واحد ، بينما يندهشون من إصرار أكثر من عشرين مليون مسلم أوروبي على ممارسة حرياتهم الدينية ، ولو في أضعف أشكالها مثل حرية اختيار أسماء مواليدهم . وهكذا تتبدى الكارثة الكبرى في الخنوع والخضوع والمذلة والمهانة الاختيارية التي يسوق العرب والمسلمون أنفسهم إليها . وحين نريد أن نرفع رؤوسنا ونخرج من ركاب الاتسحاق يلوحون لنا بصور " صدام " و " عبد الناصر " و " السادات " و " القذافي " وأمثالهم ، كأننا لا يجوز أن نحيا إلا تحت كوابيس القتل والسفاحين والظالمين ، الذين لم يكونوا يوماً " رؤساء دول " بل " خاطفي دول " و " جلادي شعوبهم " . وتعبّر النكتة عن الواقع النفسي المؤلم الذي اتحدر إليه العرب ، فتحكي عن ثلاثة محكوم عليهم بالاعدام ، الأول أوروبي والثاني أمريكي والثالث عربي ، ويتم سؤال الأوروبي بأي وسيلة تريد أن تموت؟ فيختار المقصلة ، وعند التنفيذ يتوقف سكين المقصلة قبل الوصول إلى قطع عنقه فيقولون له : براءة من حقل مواصلة الحياة ، ثم يتجهون إلى الأمريكي ويسألونه السؤال نفسه بأي وسيلة تريد أن تموت؟ فيختار المقصلة ، وعند التنفيذ يتوقف سكين المقصلة قبل الوصول إلى عنقه فيقولون له : براءة من حقل مواصلة الحياة ، وعندما يتجهون إلى سؤال العربي بأي وسيلة تريد أن تموت؟ يقول : المسدس طبعاً .. ألا ترون أن المقصلة معطلة ولا تقوم بواجبها !

ولا نضحك ، رغم أنه ضحك كالبكاء ، فإطلالة العام الجديد ٢٠٠٤ تدق أبوابنا بوطاة تحالف صهيوني أمريكي أوروبي شرير ينهش لحمنا ويشرب دماغنا ، في فلسطين والعراق ، بترساته لصوص ، لها قلوب أقسى من الحجارة ، تطلق المدافع ، والقنابل ، وتكد البيوت بالمروحيات والمجنزرات ، وترغم الأعراء على الابتطاح أرضاً والأنف في التراب والرأس تحت الحذاء الثقيل لجندي أجنبي شاكي السلاح . وتخزق العيون صورة أطفال عراقيين متلفعين بدثار في ليل برد الشتاء العراقي القارس ، ينظرون في استفهام إجابته يقظة على التوحش في ممارسات قوات الاحتلال خلال حملات انفضاضها الفاجر على المساكن والبيوت والمنازل والأحواش والحدائق والبساتين . والنخيل والحرقات كافة بحجة " التفتيش " .

عن أي شيء " هكذا " يبحثون ؟

أسلحة ؟ خصوم ؟ أم عن " روح " مقاومة شعب مجروح خرج من مقبرة طغيان ودكتاتورية وفساد لصوص ، ليقع في بئر إذلال وقهر محتل ، وهلع جماعي لا يعلم متى تسكن فيه العواصف وتنطفئ به الحرائق ؟

تفتيش ، تفتيش ، تفتيش من قبل ومن بعد ، والتوحش واحد ، والغلظة متطابقة ، والقسوة الباردة تدير آلة القتل المعتاد من دون عقل ،

والتعب المتواصل يهطل على رأس الأبرياء ، تماماً كما كان على مر السنوات الطوال في ظل حكم البعث الصدامي .

كان السفاح بلع العراق صدام حسين يقتل وينتهك رافعاً راية :
" القضاء على خصومي واجبي حتى الإقناء " ! وجاعت قُوات الاحتلال
الأنجلوأمريكية ، تحت قناع سترة "الإحقاق" ، تمارس الجرائم عيناها : تقتل
وتنتهك وتكبل وتهين الشيخ الوقور والمرأة المستورة والطفل الجائع
رافعة الراية نفسها : " القضاء على خصومي واجبي حتى الإقناء ! "
والنتيجة هي : أرض حضارة الرافدين بين كماشة الأثقال تواصل
مشوارها التاريخي في تلاطم أمواج الملاحم وزلازل الفتن !

والحكمة التي يقولها القلب هي : " لا يمكن أن يتحقق الخلاص
من سفاح على يد سفاح آخر ! " .

ملاذ العراقي : قاتل عند كل زاوية !

في ٢٠ / ١ / ٢٠٠١ ، كتبت مقالاً نشر بجريدة الوفد القاهرية ، جاء في نهايته الآتي : " نشرت جريدة الأهرام الصادرة في ١٦ / ١ / ٢٠٠١ في صفحتها الثامنة ، تحت عنوان " شئون عربية " ، هذين الخبرين متجاورين ، الأول ، نقلاً عن وكالة الأنباء العراقية ، مفاده أن الحكومة العراقية برئاسة صدام حسين قد قررت ، ولأسباب إنسانية ، تخصيص مبلغ مائة مليون يورو لفقراء الولايات المتحدة الأمريكية ، والذين يبلغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة ، وأنه تقرر أن يجري توزيع المبلغ تحت إشراف هيئة عراقية يتم تشكيلها لهذا الغرض ، وأن يتم إطلاع الأمين العام للأمم المتحدة على هذا القرار. أما الخبر الثاني فجاء به تصريح للدكتور نبيل شعث يعلن أن الدعم العربي ، الذي قرره القمة العربية للقدس والانتفاضة ، لم يحول منه - حتى تاريخه - أي شئ ! هذه معلومات قديمة لإتعاش ذاكرة من يحاول أن يغالط بتصوير النظام الصدامي وكأنه كان قومياً ، حاملاً الهم الفلسطيني في سويداء قلبه . مائة مليون يورو من أموال الشعب العراقي ، أنفقها السيد "أسير الحرب"

عطاء لفقراء أمريكا ، في الوقت الذي كانت صورة أطفال العراق الجوعى، المرضى ترفع صرخات واستغاثات تهيب بالضمائر أن أنقذونا فالموت يتهددنا . توقفت أمام جملة كتبها لؤي عبد الله ، في مقاله الفني " هل وصل الربيع إلى بغداد " بالشرق الأوسط ٢١ / ٢ / ٢٠٠٤ ، يقول: " ... فهذا البلد الذي تركته قبل ٢٦ عاماً كان مثلاً أعلى للأمن ... " أهكذا ؟ " مثلاً أعلى للأمن ؟ " ، في نفس اليوم ٢١ / ٢ / ٢٠٠٤ أتابع برنامجاً في قناة العربية عن عائلة صدام ، يظهر صديق عدي يتحدث عن اللسان الذي يقطع ، والأذن التي تبتز ، وأرى لقطة لعدي فسي مزاحه الفاحش يضرب واحداً من ندمائه بالحذاء على رأسه ، نزوات مريض تنكل بالأصدقاء والندماء ، فأى " أمن مثالي " كان من الممكن أن يرفرف على أهل العراق في ظل نظام تحكم فيه مثل تلك العائلة ؟

أصبح خبر اكتشاف مقبرة جماعية جديدة في العراق يمر هادئاً، كأن المقابر الجماعية من المحاصيل الطبيعية لأرض الرافدين . لم تكن هناك آلات تصوير لفضائيات ترصد جرائم السطو من سلطة الدولة الصدامية ، وقطع الطرقات ، ودهم البيوت وسحب الضحايا بالركلات والصفعات ، والطرود والتشريد ، والخطف والاعتقال الأبدى حتى الموت بالذبح أو الشنق أو الإذابة ، لكن الذاكرة اختزنت هول ما كان مستوراً عن أعين العالم . للجرائم التي حاقت بالشعب العراقي لا يمكن أن تسقط بالتقادم ، ولا يمكن رؤيتها إلا خلفية مؤسّسة لفواجع العراق الحالية . إن الاحتلال الأمريكي للعراق من توابع الزلازل والانهيارات . ظلت

مخابرات أمريكا تهدي صدام إخباريات عن كل مقاومة أو تدبير للإطاحة به ، وتبارك مجازره على طول السنوات حتى تنفرد بإسقاطه - (أو ما يبدو إسقاطه) - لتبدو هي " الرجل الوطواط " المنقذ القادر وحده على تدمير الشرير - (وقد بدا في يدها هلامياً متكسراً شبحاً من بخان) - الذي لم يستحق منها سوى أن يتحفظ عليه تحت درجة : " أسير حرب " ! تغيظني الخطابات النادبة للناعية لما يجري بالعراق تحت الاحتلال ، كأن الاحتلال كان اختيارياً وانتخاباً وخلصاً مرجواً لكنه بدد الآمال !

الأستاذ الفاضل خالد القشطيني ، وأنا على ثقة أن بنر الألم لا بد عنده غويط ، يقول في زاويته المنشورة بالشرق الأوسط ١٦ / ٢ / ٢٠٠٤ : "... يتعين إثارة رعب مشابه لما كان في عهد صدام ، بحيث يدرك المجرم أن عيون السلطة تترصد له في كل مكان . ربما يليق إدخال عدد من الشرطة المسلحة ضيوفاً على البيوت أو المتاجر بحجة الترصّد لمجرمين . الفكرة من ورائها إشاعة شعور الناس بأن قوات الأمن في كل مكان ... " . لم أبلغ هذا القول الصعب ولا أرضى أن يكون من بعض مزاح الأستاذ القشطيني كما لم أتصور أن يكون من بعض جدّه ، إذا أرجو أن يكون من بعض غضبه الذي يورث الخطأ ، فلا يمكن ونحن نرى نهاية صدام المهينة وعاقبة ظلمه وجرائمه ، التي يستحقها وأكثر عن جدارة ، أن ننصح بافتقاء أثره ونسير على نهجه في التجسس والتلصص وانتهاك الحرمات لكي نصل إلى المسؤولين عن جرائم القتل والنسف ضد الشعب العراقي المكلوم . لا بد أن هناك طريقة ما -غير الحرام- لكي يستتب الأمن .

ويظل ما يدور على أرض العراق العزيز يتشابه كثيراً مع أحداث فيلم سينمائي كان عنوانه : " قتل عند كل زاوية " ، فما كاد الشعب العراقي يقلت من القاتل الأول وعصابته حتى وجد نفسه بين زوايا قتلة يتربصون به بدعوى " الإنقاذ " . يتعارك القتلة فلا تنزل السكاكين إلا على رقبة الشعب العراقي ، ولا تهدم البيوت إلا على رأسه ولا يحرق الدمار إلا بأمانته وأمنه . وبين صيحات ووجوه تلبس أقتعة " المقاومة " ، وصيحات ووجوه تلبس أقتعة " التحرير " ، و" الإنقاذ " لا يجد العراقي " الملاذ " الواقعي من القتلة . لابد لهذا الوطن من مخرج بعيداً عن " الالتباسات " . مخرج لا يعرف مسالكه سوى هذا الشعب المجروح الذي عانى من " احتلال " سابق بلون الأرضية ، لا يهمه الآن سوى إنقاذ فلولة وذبوله وتعويض خسائره بأناتية انتهجها دوماً ، ومن احتلال أجنبي ، لا يهمه الآن سوى إنقاذ ماء وجهه ومداراة كذباته وتجميل بطشه الذي تفضحه ضراوته ولا إنسانيته ، التي تقوده دائماً .

لابد للشعب العراقي من تمكك زمام " مقاومته " و " تحريره " و " نجاته " بيد " واحدة " متوحدة مخلصه ، تكون قد تعلمت أن خلاصها من السفاح لا يمكن أن يتحقق على يد سفاح آخر ، ولا يمكن أن يتم الاستقرار والأمن لأمة كل قبيلة فيها أمة !

... رَبِّ مَسْتَمِعٍ وَالْقَلْبِ فِي صَمِّ !

صارت المغالطات والأخطاء ، والافتراءات والكذبات مثل الذباب المتكوم في محل فسخاتي ، لا يكاد الإنسان يهشه حتى يعود مكانه ، جالباً معه المزيد . نموذج من هذا الذباب الغليظ قرأته يقول صاحبه : " ... ولهذا فإن التركيز على ممارسات صدام حسين والبعث الآن ، ومهما كان حديث حق وحقائق ، يخدم بلا شك الباطل الأمريكي ويكرسه ويتناغم مع ما يعرف عليه من أكاذيب ، ولم تعد ثمة مصلحة وطنية أو قومية في ترديده بعد أن أصبح البعثيون طلائع المقاومة العراقية المجيدة ونال صدام شرف قيادتها ولو لبضعة أشهر واستشهد ولداه في إحدى معاركها ... أنتظر كل مساء أتباء المقاومة العربية وعملياتها المظفرة وأعرف أن بعض البعثيين في مقدمة صفوفها وضمن شهدائها ... ولو كنت أعرف أن بريمر والجلبي هما بديلا صدام حسين لتمنيت أن يحكم صدام حسين إلى الأبد ... "

كيف يصل واحد من الناس إلى هذا التلبيس ؟

إذا كانت ملة الكفر واحدة ، فكيف لا يقودنا المنطق نفسه إلى أن : ملة الباطل واحدة، ملة القتل واحدة ، ملة الفاسدين والطغاة والغزاة واحدة . إن " الباطل الأمريكي " ليس بديلاً لـ " باطل صدام " بل استمرارينه ، والمعرفة التي قتل فيها عدي وقصي لم تكن دفاعاً عن الوطن ، بقدر ما كانت منازعة خذل فيها الأوغاد بعضهم البعض . إذا كان هناك من لا يزال يتمنى لو ظل صدام حاكماً ، فليطمئن : فالأممية متحققة لأن آثار جرائمه ونتائج بغية لا تزال سائدة وحاضرة في خلفائه المحتلين الذين باعهم العراق ليغر بدرجة " أسير حرب " ونقر عائلته ، وفلول عصابته ، بزكائب المنهوب من مال وثروة شعب العراق .

أي " طلاع مقاومة مجيدة " ، نال صدام " شرف قيادتها " ، تلك التي تبقر بطن العراق تحرق ذخائره ومكتباته ووثائقه وتدمر آثاره وتسرق متاحفه ، وتفجر مساجده ، وتقتل شيوخه ونساءه وأطفاله ؟

في ظل الحكم الهتلري كتب المسرحي والشاعر الألماني برتولد بريخت قصيدته الشهيرة " إلى الذين سوف يولدون بعدنا " قائلاً في مدخلها : " أنا أحيأ في أيام حالكة الظلمة ، معتوه من يتحدث فيها ببرئ الألفاظ ، الجبهة لا تلمع إلا في وجه بليد الإحساس ، من يضحك هو من لم يعرف بعد النبأ الفاجع ، أيام يجرم من يتحدث فيها عن الأشجار ، مسدلاً الصمت عن الأعمال الوحشية ، وتمددت لكي أهجع وسط القتل ، في أيامي كانت كل الطرق تؤدي للمستنقع ، ويكاد لساني

يسلمني للسفاح ، ، كنا نمضي نستبدل أوطانا ، أكثر مما نستبدل
أحذية ، ، " كل هذا التأوه البريختي ليس سوى الطفيف من الأتسين
العراقي في ظل الحكم الصدامي الممتد حتى الآن عرضاً مستمراً في الزبي
العسكري الأمريكي .

كتب بريخت تلك القصيدة يبرئ ذمته من الحكم الهتلري ، وكان
للحكم الهتلري "إنجازات" ، كما كان للحكم الموسوليني في إيطاليا ، فقد
بنى هتلر ، وبنى موسوليني ، الشواهد من الاقتصاد والصناعة والسدود
والجسور والأنفاق ورصف الشوارع ، وتعبيد الطرق ومد السكك الحديدية
وزرع القمح والبطاطس ... إلخ ، وحقق هتلر لألمانيا " انتصارات "
حربية هائلة في مواقع كثيرة ، اجتاحت فرنسا ودخل روسيا وانتصر شرقاً
وغرباً وشمالاً وجنوباً قبل أن ينكسر دفعة واحدة ويسقط هو وموسوليني
من حائق ، لكن بريخت ، عندما وقف ضد هتلر وهو في قمة زهوه
بإنجازاته ، لم ير في هتلر غير سفاح شاذ يتفنن في القتل ويبتكر له
الوسائل التي يفتق عنها خياله المريض ، متهماً خصومه بأنهم أعداء
التقدم والحرية وعصابات التخريب والإرهاب . وكان الناس فريقين :
فريق صامت يعضغ المرارة في الخفاء ، أو مرتش يتمتع بقربه من
السلطة وبما يصيبه من منافع . لم يحقق صدام للعراق أي شيء من
"إنجازات" هتلر " المادية " لألمانيا ، لكنه حقق المجازر والجرائم وتفوق
في إفساد الفطرة البشرية السوية ليجد الأعوان والحاشية والأدوات ومن
وما يحقق له قهر خلق الله وإذلالهم . وكانت الآية الكريمة : بسم الله

الرحمن الرحيم : " واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة " نذيراً، لمن أثر السلامة ، تخبرهم أنهم سوف يدفعون ، إن أجلاً أو عاجلاً، عقوبة صمتهم وسكونهم وقبولهم رشوة " النجاة " من بطش الطاغية في مقابل التفاوض عن سحق الروح وتشويه القطرة وإهدار عزة الإنسان ، أكرم خلق الله ، وتعذيبه بالشبهة والظن ، بل و"المزاج" من دون جريرة اللهم إلا لإرضاء شهوة البطش والبغي والجور .

أمريكا تخرج أضغافها

ما أجمل لوحة الكاريكاتير التي رسمها الفنان أمجد رسمي تصور وجه بوش يتحول إلى وجه صدام إبان غروره وسطوته الغيبية . واللوحة يمكن أن نقرأها من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين فالتحول من " بوش " إلى " صدام " هو بذاته تحول " صدام " إلى " بوش " ، لأن احتلال بوش للعراق تطابق مع احتلال صدام لأرض " النازفين " . بالطبع لا نندهش من نتائج الاحتلال بعد علم من تخلي السلطة الصدامية عن مسؤولياتها في صيانة البلاد وحمايتها من الغزو ، وتركها للشعب العراقي يواجه القصف بالجوء إلى المسجد والاستغاثة بالله سبحانه وتعالى . ما زالت هذه اللقطة التليفزيونية نائمة لا تتحرك ، شاهدة على نذالة السلطة الصدامية ، إن لم نعترف بـ " مؤامرتها " وبيعها للعراق مقابل تسهيل الفرار للنصوص بذكائب الدولارات .

في خلال العام لجأت سلطات الاحتلال إلى كم هائل من الإجراءات التي كان من شأنها أن تشيع الفوضى والمقاتلات والهرج

والمرج وخط الحابل بالنابل . لا يمكن أن نصدق أن لجوء سلطات الاحتلال إلى حل الجيش العراقي ، وطرد موظفي الوزارات ، ودهم البيوت ، وإذلال الرجال ، وهتك ستر النساء ، وترويع الناس كافة ، لا يمكن أن نصدق أن هذا لم يكن مقصوداً ليؤدي إلى النتائج التي نراها الآن لكي تبرر القصف والضرب ، من أعلى ومن أسفل ومن كل جانب ، والمزيد الذي يتوعد به رامسفيلد بوجهه الفرانكشتيني . أمريكا تخرج أضغانها في العراق سادرة في القسوة والجنون ، تأملوا كم الإرهاب في المفردتين . "الصدمة" و"الترويع" ! ولا يزال وجه بوش يطل علينا في ثقة المخابيل : "نحن في حرب دفاعية ... أنا أحمي الأمريكيين ... أنا أحرر العراق ... " ، يقول كل هذا بلسانه والعالم ما زال يشهد النقيض الحاصل من الدمار والذبح والتخريب والاعتقالات وفرض سيطرة القهر والاستبداد والدكتاتورية ويكمل رامسفيلد : " ... مستمرون من دون توقف حتى القضاء على الإرهاب ... ! " .

على الشعب الأمريكي أن يسقط بوش وإدارته عن الحكم ويلبسهم قميص المجاتين الكتافي فوراً ، إذا كان لهذا الشعب أن يصون بلاده من دورة الدائرة القاصمة الآتية لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً . وإذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام قد نهانا عن التمثيل بجثث الموتى قائلاً : " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور " ، فإن أبشع جرائم التمثيل هو ما تفعله أمريكا وحليفاتها الصهيونية في القيم الإنسانية وحقوق البشر في الكرامة ، بالإضافة إلى عمليات الاغتيالات التي تنثر أشلاء الضحايا من

غسان كنفاني إلى أحمد ياسين ، ومن محمد باقر الحكيم وأصحابه إلى شهداء عاشوراء ١٤٢٥هـ .

هل لا يزال هناك من يعجب بـ " قوات الحضارة " الأمريكية ؟
داست قوات بوش كل ركن بالعراق ، متحف التاريخ والمحمية الثقافية التي لا يجوز أن تخذش أو يمسسها أحد بسوء ، يركلون الأبواب في فظاظه وجهل ، ويعنون أسماء الخارجين على قانونهم . العدوان إجراء شرعي ومقاومة أهل البلد غير شرعية ، تشابه بشع بين جنودهم وجنود الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، فملة المجرمين واحدة .

على الشعب الأمريكي أن يعرف أن الشعب العراقي قد أفاق من " الصدمة " ويستعيد لياقته وتوازنه ليصد بنفسه ، وبلا هوادة ، وجه بوش ووجه صدام .

في سبتمبر ١٩٤٠ استطاع هتلر أن يقرر بطن أوروبا ويتوغل في أحشائها بدعوى إفساح المجال الحيوي للشعب الألماني للتغلب على الوضع الجغرافي المطوق لألمانيا ، وفي خلال فترة وجيزة التهم هتلر : النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والدانيمارك والنرويج وبلجيكا وهولندا وفرنسا ، حطمت قواته باريس وهددت الجزر البريطانية وبدأ هتلر كأنه المنتصر ، لكن مقاومة الناس تصدت للعدوان والغرور الأحق ، وبعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ وسقوط هتلر ظل الألب الغربي ، وظل الفن ، وظل الشعر والمسرح والسينما ، في البلاد التي ذأقت الويلات ، تتحدث

عن الوحشية الهتلرية وعن الخراب والعبث والجنون الذي انسحبت إليه
القارة الأوروبية منتصرة أو مغلوقة ، فكيف يسمح العالم ، وكيف يسمح
الشعب الأمريكي لبوش ورامسفيلد ، وبقية العصابة الحمقاء ، أن يعودوا
بنا إلى منطق السفاهة وكلمات الخيل .

منذ سنوات والعراق أسير " الوحش " صدام حسين ، وها هي
بقية الوحوش المفترسة تأتي من وراء البحار البعيدة تستلمظ لافتراس
" الجميلة " التي عليها الآن أن تقاوم الاغتصاب بأظافرها وأسنانها .

يتعاطفون مع السفاح ليشتبهوا بالرحمة

" أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتبهوا بين الناس بالعدل " ، هذه مقولة مشهورة ، لعل قائلها هو المجاهد الوطني مصطفى كامل ، ففرت أمامي لتلبس هؤلاء المتعاطفين مع بائع العراق ، الذي أحل قومه دار البوار ، المجرم صدام حسين ، مع تعذيل مناسب : هؤلاء يتعاطفون مع السفاح ليخدعوا الناس بالرحمة .

يتمسك صدام حسين بئنه " رئيس دولة " ، كأنه قد حصل على المنصب شرعياً بالانتخاب والاختيار الحر . ويتساعل : بأي قانون تحاكمونني ؟ كأنه يعرف " القانون " ، الذي لم يخطر على باله حين أعدم العلامة محمد باقر الصدر وشقيقته أمنة بنت الهدى ، والآلاف غيرهما من العلماء والمجتهدين والأبرياء ، من دون أن تطرف له عين أو يستشعر وخزة ضمير يتساعل عن حق إنسان متهم ، بالظن ، في ادعاء ودفاع وقضاء واستئناف ونقض ، بل لم يخطر على باله حين قتل سيده ومسئوله و" رئيس دولته " أحمد حسن البكر ، ثم مشى في جنازته ،

وحين أطاح برقاب رفاقه في ضربة " سيف " واحدة ، بعد أن قرر ، هو وحده ، أنهم خونه والخائن - كما أفتى - " ما له عندنا إلا السيف " ،
وحين لم يتح الفرصة لرافع يده برجاء كلمة واحدة تنقذ عنقه ، زاعقاً فيه ، " إطلااااع " ، كأنه كان عبداً من عبيده توارثه عن أجداده . تسذيع للفضائيات لقطات من وثائق مسجلة لجولات حضرة " رئيس الدولة " يستوقف فيها المواطنين ، يكلمهم من شبك سيارته الفارهة الأمامي وزوجة ساجدة ، بشعرها الأصفر المصبوغ ، في المقعد الخلفي شاهدة وهو يلقي محاضراته : " هذا دماغ لابد يكون به مخ " ، يرتعد الرجل المتوقف أمامه ويهز رأسه : " تمام سيدي " ، ويواصل حضرة " رئيس الدولة " السائل الآن عن القاتون والمحامي ، " ما يكفي تهز رأسك ، لازم نفهم " ! يتكلم بعنجهية وعجرفة متحكم فظ في ملجأ للقطاع ، يعرف أنه ما من أحد هناك يحاسبه ، لا أب ولا أم ولا أهل ولا عشيرة ولا حق ولا قانون ، شعب بأكمله مخطوف ومكبل ومكتم ومحبوس - رهينة - في سراديب وأنفاق وأقبية من كل شكل ونوع ، حتى أقرب المقربين غير آمن ، حتى أشرس كلابه المتوحشة ، لا تعرف متى يميتهها السم والرصاص والإذابة . يتبجح " أسير الحرب " ، ناعثاً بوش بالمجرم ، كأنه لم يتقدم بطلب - تم رفضه من هيئة حقوق الإنسان - ليظل عند " بوش " أسيراً ولا يتم تسليمه للعراقيين . ألم يكن الأجدر به أن يفرح بانتقاله من أيدي المحتل الأمريكي " الغاصب " ليكون في حضانة أهله ؟ لكن متى كان صدام حسين عراقياً منتظماً إلى أهله ، خالقاً عليهم ،

حريصاً على دماءهم ، حارساً لأعراضهم ، مدافعاً عن حياضهم لحظة القصف والدك والدهس بأحذية المحتل الذي انتهك سيادة الوطن ؟ متى ؟ يسأل عن حق في " الكويت " ولم يعرف كيف يحمي " بغداد " ، ولا يخجل مع ذلك أن يصبر على أنه " رئيس دولة " العراق ! ألا تكفيه جريمة تمكنه الأعداء من احتلال البلاد ليستحق بها الإعدام ألف مرة ؟

يتألم واحد من المتعاطفين مع السفاح لأن " القاضي " صغير السن . ما عمر القاضي ؟ في عشرينياته ؟ في ثلاثينياته ؟ في أربعينياته ؟ وكم كان عمر صدام عندما تربع قاضياً على العراق ، سارقاً أمواله ، ساحباً غطاءه البنكي من الذهب والدولارات ليكدسها في حاويات وزكائب مليارات مليارات تحت يده تسهل له الإفساد ، والإتفاق على من يشاء وكيفما شاء وفقاً لأهواله ونزواته التي لم تحقق له شعباً ؟

وكم كان عمر " عدي " و " قصي " عندما تسلطا على أنفاس الناس يقطعون الآذان والألسن والأيدي وما هو أفدح ؟

ثم من أين تأتي المحكمة بقاض عراقي تعدي الخمسين أو الستين أو السبعين بعد سنوات حكم صدامية لم تأل جهداً في السعي لإبادة الحكماء والعلماء والمفكرين ورجال القساتون وأساطينهم ، بالهدر والتسفيه وبالتهميش وبالنفق ، إن لم يكن بالقتل وبالسكتات الدماغية ؟

وما هو هذا المنطق الأعرج المتريص بكل ناطق بالحق ، يرميه إذا أشار إلى جرائم صدام كأنه يختار جرائم بوش ، وإذا ندد بجرائم بوش كأنه يعفو عن جرائم صدام ، فكأنه من المحتّم أن نقتل نختار بين البول والبراز إذا شئنا الخلاص من أيهما ، وهما أنجس من بعضهما البعض .

لو كان هناك اختلاف أو تناقض بين المجرمين صدام وبوش ، بين الاحتلال بلون الأرضية والاحتلال الأجنبي السافر ، لما أسبغ بوش على صدام لقب " أسير حرب " ، ولما استغاث صدام بحقوق الإنسان لكي يظل بأيدي المحتل الأمريكي ، ولما تمكنت ابنته رغد من التزين والابتسام لعدسات التصوير ، بخلفية بيتها صاحب الثراء الذي تسميه " بسيطا " ، وهي تحكي عن " حقوق " الولاد بصفته " رئيس دولة " يرى أن " فرجه قريب " ! .

إن الذين يتعاطفون اليوم مع " آلام " صدام ، لحظة قصاص الله بهوانه وإذلاله ، يظلمون " آلام " الشعب العراقي ظلماً جارحاً لا شفاء منه ، ويغفطون حقها في أن ترى نهاية عادلة لسفاح مستبد لم يرع في أبناء وطنه إلا ولا ذمة ، وينترعون من الضحايا وأهلهم وعداً من الله سبحانه وتعالى بأن يشفي صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . إنها ليست الشمماتة ، لكنه " القصص " ، والعبرة ، وليتعض من له " دماغ به مخ " بحكاية قارون المغرور الجبار ، الذي كان من قوم موسى فيغشى عليهم وأشاع الفساد في الأرض ، واغتر به من يريدون الحياة الدنيا ،

كلما خرج في زينته ، وتمنوا مثل ما أوتي ، وفي سورة القصص يأتي قول الله سبحانه وتعالى في الآيتين الكريمتين ، ٨١ و ٨٢ ، ليرينا عاقبة المتكبرين : فخصفنا به ويداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكانه لا يفلح الكافرون " . صدق الله العظيم والحمد لله رب العالمين .

حاكموا صدام بقانون صدام !

لا بد أن يحاكم كل طاغية بقانونه ، الجزاء من جنس العمل . لا بد أن يحاكم صدام حسين بقانون صدام حسين . هذه اللافتات المألعة : " أسير حرب " ، " اتفاقية جنيف " ، " حقوق الإنسان " ، " لا بد أن نثبت أننا لسنا مثله ... " إلى آخره ، هذه لافتات يدوسها الحكام بالأقدام فوراً حين يهب الشعب المظلوم للدفاع عن حقوقه ، أبسط حقوقه : الماء والغذاء والكساء ، عندها لا نرى حقوقاً للإنسان ولا نرى أيّاً من هذه اللافتات لصالح الشعب . الحاكمون الجدد في العراق يعنون ضرورة عودة عقوبة " الإعدام " ، يا سلام ؟ هل كانت قد ألغيت ؟ هؤلاء القتلّى اليوميين من الناس ، ماتوا تكريماً ؟ ما هي " العقوبة " إذن ، وما هو " الإعدام " ؟ .

لا تحمد السيدة رغد صدام حسين ربها على بقائها " حرة " تملك ما تملك مما أعطاه لها " الوالد " ، ساعة غزو البلاد حين أرسلت السيارات " المؤمنة " لتهريبها هي وأمها السيدة ساجدة وشقيقاتها ، لا تحمد ربها أن السيد الوالد لم يفكر سوى في إنقاذ عقلته والبلاد تدوسها

أقدام الغزاة ، لا تحمد ربها في أنها أفلتت هي وأمها من الوقوف أمام محكمة شعبية ، مدانين بتهم الاتفاق الضمني مع الطاغية لسلب العراق ماله وأرصده وآثاره وإذلال أهله واستباحة حرمانه . ألم تكن تعرف رغد وأمها ساجدة ما استطاع أي زائر عابر بالعراق أن يعرفه عن آلام أهل أرض " النازفين " ؟ يا سلام يا ست رغد ، يا خليفة والدك المسكين أسير الحرب الذي تريدين أن تساعدته بكل ما تملكين بمحاميين " أمريكيين " لأنهم : " يمكن أن يكونوا أكثر منفعة من محاميهما الذين يثيرون الضجيج ... " ، كما أقامت حضرتها في حديثها مع الصحفية " دافني باراك " المنشور بالشرق الأوسط ٣ / ٨ / ٢٠٠٤ - إذن فانت يا ست رغد تعرفين " المساعدة " ، و " بكل ما تملكين " ، ماذا تملكين يا رغد ومن أين لك هذا ؟ ، وتريدين محامياً " أمريكياً " طبعاً جيد التوصيل لتوسلاتك ليتمكن والدك من الإفلات من العقاب الذي يستحقه ، وأي عقاب يمكن أن يكون كافياً وشافياً وحقاً وعدلاً لهذا الذي أهلك الحرث والنسل وأتى بجراد الغزاة يكملون مسيرته في التهام الأخضر واليابس في أرض " النازفين " . أصابتك يا رغد الهستيريا بسبب القلق على الوالد، أسير الحرب في الزنزانة المكيفة ، تعرفين إذن " القلق " يا رغد ؟ ألم يناوشك القلق على أهل بلادك يوم كانت الرصاصات بالدماغ أسرع من الصفحات ؟ ويوم ... ويوم ... ويوم ... ؟ الشابة السادية الأمريكية " اتجلايد " تقدم للمحاكمة لأنها أهانت رجالاً عراقيين ومثلت بجثثهم ، ليسوا من جنسها ولا من ملتها ولا من بقية أهلها، لماذا لا تفرحين أنك

ووالدتك ساجدة وبقية عائلتك لم تؤخذوا مثلها للمساعدة عن الصمت الإجرامي الذي كان تشارككم يوم هتك عدي وقصي أعراض العراقيات والعراقيين ، بل يوم أطيح برأس زوجك وعقلتة رغم خدمات الإجرام العديدة التي قدموها لوالدك وأخوك ؟ هل "إجلاد" أكثر إجراماً منك ومن والدتك وبقية أهلك ؟ تزعمين أن لديك "كبرياء" ؟ ما شاء الله ، أبعد كل هذا الهوان للوطن والأهل والعشيرة وما زلت تملكين "كبرياء" ؟ تفخرين " أنا ابنة صدام وأمي زوجة صدام . أطفالي أحفاد صدام ... هو في حاجة إلي بعد موت أخوي ... " ، ممتاز ، إذن عليك أن تفهمي أنك وأمك وأطفالك قد هريتم من العقوبة المستحقة عن هذا الانتماء . تنديبن حقيقة أنك وأولادك الآن " بلا وطن " ، مع أنك ما زلت تعيشين في " الوطن العربي " ، ماذا عن الذين شردهم أبوك و " أركان نظامه " على مساحة الكرة الأرضية من القطب الشمالي حتى الجنوبي . لا يعنيكي كيف فرض أبوك الحرب على إيران وكيف غزا الكويت ، فإيران كانت تملك قدرات الدفاع ، والكويت عرفت لمن تلجأ ، الذي يعنيكي ، من البداية إلى النهاية هو ذلك الشعب العراقي الذي اختطفه أبوك ، وأركان نظامه ، ووضع السكين على نحره يذبحه في الدقيقة ألف مرة ، والكاميرات لا تصور سوى التصفيق والتأييد والركوع والسجود للجبار المفتون ، وما من التفاتة للشعب الرهين الذي قطع لسانه وصورت إمدادات دفاعه . تخيلي يا ست رغد لو كنت ابنة " مخلوع " من " الرئاسة " وكان "صدام حسين" هو " الخالع " ، لا "المخلوع" ، ماذا يمكن أن يفعله بك " قانون "

صدام حسين " . هل كان من المحتمل ، ولو صفر في المليون ، أن تكون لديك شكوى بسبب عدم السماح لك بزيارة في " زنازته المكيفة " ؟ هل ثمة بند في قانون صدام حسين كان نصه : " حق المواطن في زيارة سجين له " ، ناهيك عن رئيس مخلوع ؟ لماذا لم يعامل صدام حسين بقانون صدام حسين ، يطبق عليه قانونه "بحذافيره" نعم " حذافيره " ، هذا هو " العدل " الذي ارتضاه صدام طيلة حكمه للشعب العراقي ، وهو الأولي به الآن !

صحيح صدق المثل القائل : " سكتنا له ، دخل بحماره " !

منصور رحباني وفن الخصومة مع الطفلة والفراة

للفن الجميل سره الشافي من وجوم الأيام الصعبة ، وأضيف :
للفن الأصيل رؤيته الناقبة التي تبدو أحياناً مثل النبوءة الصادقة .

منصور رحباني الآن على مشارف الثمانين ، حفظه الله ،
وعندما ظهرت له " آخر أيام سقراط " ، كان في الرابعة والسبعين ،
ولديه الوعي بسنوات مرت على منطقتنا العربية وعلى العالم بأسره ، لا
تقل عن ٦٠ سنة ، بدايتها الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وضياح
فلسطين ١٩٤٨ ، وعدوان ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ، والحرب الأهلية
اللبنانية المدمرة وغير المعقولة ، ومسلات الخديعة السلامية ، إشر
النصر الوحيد عام ١٩٧٣ ، وهيمنة النظم الدكتاتورية باسم مصالح
الشعب ، ودخول أحلام التحرير الوطني والحرية والاستقلال والعدالة
الاجتماعية تحت مطارق التعذيب والإهانة والطرود والقتل صراحة وغيلة
حتى الإبادة على طاولة السجون والمعتقلات الدوارة ، ثم ، أخيراً ،
الوقوع في براثن الهيمنة الأمريكية ، دولة واحدة ، تدعى الديمقراطية ،

وتسعى لتحكم قبضتها على الأرض ، تقتبس وتعيد قسوة وجبروت كل مدارس إمبراطوريات الاحتلال والاعتصاب الحديثة والموغلة في القدم ، فالرائي لشائنة التاريخ يشاهد على ملامحها : التكرار والمغول وطفلة الفرس والرومان ومجون مترفيها وتهتكهم ، رغم ادعائها أنها " نظام " عالمي جديد .

يختار منصور رحباني ، لمدخل مسرحيته الغنائية : " آخر أيام سقراط " ، لحظة تاريخية هي احتلال أسبارطة ، دولة الحرب والشراسة ، لأثينا ، وطن الفكر والفلسفة . سقراط هو الشخصية المحورية التي ترمز إلى المقاومة الفكرية في مواجهة الكذب والفساد والاستبداد والخزعات وعقائد الشرك والوثنية ، ونسمع سقراط يخاطب وطنه المحتل : " أثينا يا أثينا ، أنا واللي مثلي عملناك يا أثينا ، جعلناك مدينة الفلسفة والحضارة ، السياسيون شرشوك ، خلوا عسكر سبارطة المتوحش يدعس ترابك .. " ، وقبل تجرع السم ، في نهاية العرض تنفيذاً لحكم الإعدام بحقه ، يعطن إيمانه : " ... إله واحد خالق ها الكون ... " ، رافضاً لآلهة : " تأكل وتشرب ... آلهة تتجوز ... لأ ... " ، وهذا البعد الإيماني لشخصية " سقراط " ، يتعمد " منصور رحباني " توضيحه ، مع تمتماته المسبحة في نصه المطبوع الحريصة على " بإذن الله " و " شكراً لله " ، مما يجعلنا نحس بالعمل مرفوعاً بنية صلاة تدعو وتؤكد أن من هو : " رايح ع درب الحقيقة ، متوج بالاستشهاد ... " .

"سقراط" - القائد الفكري والروحي للناس - لا تحبه أي سلطة، سواء كانت سلطة "كريتياس"، الحاكم الفرد عميل الاحتلال الأسبرطي، أو "أثيتوس"، زعيم الحزب الديمقراطي تاجر الجلود وحارس مصالح الأغنياء على حساب حقوق الشعب الفقير. "سقراط"، الواقف بين الناس في خندق الحق، في خصومة مع الطغاة والغزاة، هو الذي ترميه التليفقات بالتهمة: "سقراط إنت اللي دخّلت سبارطة، إنت اللي زعزعت الدين، بسبب تعاليمك غضب الآلهة حل علينا، لازم يتحاكم سقراط ... " وهكذا ينقلب الميزان القسط. "... المظلومين حاكمين والشرفا محكومين ... " .

قدم المخرج " مروان رحباني " الممثل " زياد سعيد " في دور الطاغية " كريتياس "، عميل الاحتلال وسفاح شعبه، ليتشابه في الحركة والإيماءة والصوت تشابها، لا تخطئه العين، مع توليفة مكونة من صدام حسين وابنه عدي - (نلك إيان سطوة صدام وعدي، بما يؤكد أنه كان هناك من استشعر آلام الشعب العراقي وتصدي لمعذبيه بالإدانة من دون خوف أو تردد) - وينشد الكورس، بلسان منصور رحباني: " حكم كريتياس بسيف سبارطة حكم، مشي نهر الرعب بأثينا، كتب الشعر تلطخت بالدم، طرقاتك يا أثينا لأبدن وخناجر، دايم حدا مارق، ودايمأ خنجر ناظر ... " عقوبات الإعدام وجبت يومية: "وسع الظلم، انكسر العدل، إسودي يا أثينا". يقول "سقراط" للطاغية: "كريتياس، هل بيحق لنا نلغي إنسان إذا كان رأيو بيخالف رأينا؟"، ويرد السفاح:

لأجل الصالح العام ... " فيسائله "سقراط" : " هل فيه حكم صالح بيقدر يقتل ؟ " ويختصر الحاكم الجائر الحوار : " ... ما حدا يتعاطى بالسياسة بيعش مرتاح ! " وحين يطلب " كريتياس " من سقراط أن ينضم إليه ، يولجه " سقراط " شو قضيتكم إنتو وحزبك غير التنكيل بالناس ؟ " لذلك يصدر الأمر من " كريتياس " بمنع "سقراط" من الكلام : " اعتباراً من اليوم ممنوعة التجمعات ، ممنوعة المظاهرات والتعليم بالساحات ، في حبس واعتقالات ! " ولا يتراجع " سقراط " ، المرجع الفكري والروحي للناس ، " علينا أن نمثل الجرأة لنعلن عن أفكارنا ونجعلها مطابقة لأفعالنا.. الناس أغلى من الحكم " .

" أفلاطون " ، من تلاميذ "سقراط" ، يحكي عن جمهورية الفاضلة : " وبالجمهورية رؤساء الدولة مش لازم يمتلكوا فلوس ومش لازم يتجوزوا ، حتى قرايبهم وولادهم ما يستغلوا السلطة ! " وتستمر الملامسات الكثيرة الساخرة عن فساد الحكم والمحسوبيات وخرق القوانين بالقوانين ، وقتل الشعب بدعوى مصلحته : " خلّي رجالك باكوستا يعدولي خيالات الناس ... مين اللي بيفكر يتمرد ، مين معنا ومين علينا " . وتكون الإجابة : " بقيو اللي معنا وخلصوا اللي علينا .. " أما مشكلة الفقر فيكون حلها بإبادة الفقراء : " ... إلغي الفقرا بتلغي الفقر ! "

وحين يذهب الحاكم الفرد ، يأتي الديمقراطيون بسلطة ، مستغلة: " ... إجت الديمقراطية ما تغير علينا شئ ... " ، وتستمر المواجه نفساً لا ينقطع يشهق به عرض "آخر أيام سقراط" ويزفر حتى تصل ذروته في المحاكمة وقرارها بإعدام "سقراط" بتجرع السم ، وقد رفض الاسترحام : " عيب ع العدالة نلتمسها لشفقة ... يا قضاة ، أنا عارف إنني جاي ع الموت ، لا تتربوا مني موقف ما بينسجم مع واجبي الأخلاقي والديني ... " وتصرخ زوجته : " ... كل واحد بنقول عنه بطل مصلح قتل من شعبه ميت مرة أكثر مما قتلوا المحتلين " .

يرفض "سقراط" فرصة الهرب ويواجه الموت : " انفتحت أبواب الليل ، والموت قصيدة ، اعطوني يا حراس الكاس ، كتار بيحملوا الشعارات وقلال المكرسين .. "

حين يشرب كأس السم تقع عصاه ويجمد "سقراط" ، رمز المقاومة الفكرية والروحية ، واقفاً حتى يغيب صاعداً مرتفعاً إلى أعلى ، والجميع ينشد في قصيد شعري موسيقي غنائي مشحون : " يا بواب الدهر تعلّي ، ارتفعي يا مداخل ، يا غيم الأبيض صلي ، غطي الهياكل ، اللي راكع بدو يعطي ، والطاغي بدو ينذل ... يا صيف يا شتا ويا أعياد... رايح ع درب الحقيقة ، متوج بالاستشهاد " .

أحببت أن أنعش الذاكرة بهذا العمل المسرحي الفذ ، الذي جسّد وظيفة الفن الضرورية والراقية ، التي لا تلمس الجراح بالزاعق الحارق،

أو الثقيل الكاتم للتنفس والمهيج للإلتهاب النازف للدم والقيح . وأحببت
أن أسجل لمتصور رجباني رؤيته الثاقبة التي جاءت مثل نبوءة صادقة ،
حققتها أماننا هذه " الأيام " !

من هم (الأجانب) ومن هم (أهل الدار) ؟

الطغاة يجلبون الغزاة ، والغزاة لا يرعون في بلد إلا ولا ذمة ، فهم ، متى دخلوا قرية أفسدوها وجعلوها أعزة أهلها أذلة . إن ما يحدث في العراق ، من بداية النجف الأشرف حتى الفلوجة الباسلة ، مروراً من البصرة في الجنوب حتى الموصل في الشمال ، أشياء فوق قدرة تحمل أي جهاز عصبي سوي آدمي بشري إنساني . والمقولات الملفقة التي تدعى فرحة البعض بـ " بسالة جند التحرير الأمريكي " كذب وافتراء وتلفيق وضيع فيج ورخيص . لقد أدمى صدام حسين العراق بمجازر " حلبجة " والمقابر الجماعية والهتك والطرذ والتشريد ، وجاء حلفاؤه من بعده يكملون مشواره بجعل كل مدن العراق " حلبجة " ، وكل طرقاتها مقابر وكل برامجها اليومية هتكاً وطرذاً وتشريداً وجرائم ضد إنسانية أي إنسان يدب بقدميه على هذه الكرة الأرضية . لا يخلج متحدث أمريكي من التصريح بأنهم عثروا على " أجانب " يساندون مقاومة أهل الفلوجة ، ونكتشف أن " الأجانب " للمعنيين من أقطار عربية وإسلامية مختلفة . هؤلاء هم " الأجانب " الدخلاء أما حضرات العسكر الأمريكي وقوات

التحالف متعددة الجنسيات فهم " أهل الدار " الألكاح وأصحاب الشرعية التي تخول لهم البرطعة من جنوب العراق إلى شماله ، ومن شرقه إلى غربه بالمجنزرات والمروحيات والقنابل المحرقة والأسلحة الفتاكة ، ولم لا ؟ أليسوا هم أصحاب القوة والمنطق القادر على جعل المقاومة مرادفة للإرهاب ، والدفاع عن النفس والحرمان مرادفاً للانتفلات الأمني ؟

هل ينتقم إيلاد علاوي من أهله لأن صدام حسين قتل أمام عينيه، أفراداً من عائلته ؟ هل هي مسألة ثارات شخصية ؟ أم أنه واحد من الذين تشربوا منهج الممارسات البعثية الصدامية الوحشية فلا يرى بأساً من التحريض على إذلال بلاده وأبناء الوطن والدين والعشيرة ؟ ما هذا الذي تباركه من قتل وتدمير وتكثيف على أرض العراق يا سيد علاوي ، وأنت يا حضرة الياور ، وأنتم يا عربان الحي ؟ ألا تخافون غضب الله ؟ هل هذا الذي يحدث للأطفال والنساء والرجال والبيوت والحرمان من قبل الجراد الأمريكي ، هو الدواء الناجع لترشيد الانتفلات الأمني ، وترويض الفوضى ، ونشر الطمأنينة حتى يأمن المواطن الخطف والقتل والسبج ؟ هل بتعفن الأجساد في الطرقات وانطلاق الوباء يتكبل الخاطفون ؟

تحارب أمريكا ، ولا تدعم من يؤيدها من العرب والمسلمين ، أهلنا ، وطننا ووطننا وتعيث الفساد في أرضنا ، بلداً بلداً ، تحت لافتات واضحة التزوير ، تارة بحجة " مكافحة الإرهاب " وتارة " أسلحة دمار شامل " ، وتارة " إسقاط نظام فاسد " ، فما هو النظام الذي تحميه

أمريكا؟ أليس هو النظام الصهيوني السفاح الذي يغتصب أرضاً لا ينتمي إليها ، ويغير هويتها ، ولغتها ، وعقائدها ، بالقوة بالقوة بالقوة والترويع والاعتقالات المعلنة ، المفترخ بإنجازها ، وتدخل هذه الترسنة العسكرية الإرهابية في حلقات مناقشة : " طرق مقاومة الإرهاب العالمي " لتدافع عن أفراد عصابتها بصفتهم : " مدنيين أبرياء " ، وأهلنا في فرار يعدون كغزال تتبعه كل كلاب الصيد ، هرباً من ترسنة أمريكية بوشية رامسفالدية مصاصة للدماء ، تمخر البحار والمحيطات وتعبّر بصواريخها أرض العرب والمسلمين ، تقتل من تريد بتهمة إيواء الإرهاب ، فهل هناك "إيواء للإرهاب" أكثر من إيواء الإدارة الأمريكية ، على طول تاريخها ، لإرهاب الكيان الصهيوني ؟ وهل هناك قرار إرهابي أخطر من إعلان أجهزة المباحث والمخابرات الأمريكية ، إعادة العمل بقانون الاعتقالات ، ومن يفتح فمه لينكلم عن "مؤامرة" صهيونية ، يصفعه التحضير للقانون القادم " معاداة السامية " ؟ ما معنى " قانون " و"اعتقالات"؟ ما هذا الربط العجيب ؟ ما هذا النصب والاحتيال والكذب الصارخ والاستهانة الوقحة بالمنطق ، الذي تقف إلى جواره بعض الأصوات العربية والإسلامية بدعوى دعمها لمكافحة الإرهاب ؟

كل حرب عالمية فئرة ، لم تتوان عن اختراع لافتة نبيلة ترفعها لتبرر عدوانها على البشرية بأسلحة الدمار الشامل ، تحت علم الدفاع عن " الحرية " و " الديمقراطية " و " ضد الفاشية " و " ضد النازية " و " من أجل سعادة البشر وإطعام الكادحين " . واتخذت الحرب الأهلية الأمريكية

الضروس شعار " تحرير العبيد " ، ووصل المحفلون فيما بعد إلى حقيقة أنها لم تكن سوى ذريعة اقتصادية لسيطرة ولايات الشمال الأمريكية على ولايات الجنوب . هذا الكلام نقوله لنُدلل أنه لو كانت هذه " الهبة " الأمريكية البوشية ضد " الإرهاب " حقاً لما تزايدت ممارسات الإرهاب الصهيوني تحت مظلتها وتصاعدت خلال الأعوام الأربعة الماضية في إدارة بوش ، والمنتظر أن تركب أعلى ما في خيلها خلال فترة رئاسته هذه البادئة بعد فوزه في " عار " الانتخابات الأمريكية ، ولما شاهدنا على شاشات الفضائيات ما استطاع مصوروها من رصده لأبشع أشكال الممارسات الإرهابية الفظة التي يقوم بها حالياً جند وعسكر قوات الاحتلال الأمريكي تنقيذاً لتوجيهات رامسفيلد المشرف المباشر على سحق مدينة الفلوجة الشهيدة الشاهدة .

حين قال بوش ، منذ سنوات ، " إنها حرب صليبية " ، لم يكن مخطئاً ، هو يعرف تماماً " أنها حرب صليبية " ، وقد عقد العزم على أن يجوس خلال ديارنا بهذه الصفة : " قائد صليبي " يردد " ها قد عدنا يا صلاح الدين " ، فلماذا يا عربان الحي لا تصدقون الرجل ؟

ماذا قال نجيب سرور في ملك الشحاتين ؟

في الموسم المسرحي ١٩٧٠ / ١٩٧١ قدم مسرح البالون بالقاهرة عرض مسرحية نجيب سرور " ملك الشحاتين " ، بإخراج جلال الشرفاوي . ورغم التشابه الظاهري بين نص نجيب سرور ، ونص " أوبرا الثلاث بنسات " لبريخت ، التي أخذها عن مسرحية إنجليزية قديمة إسمها " أوبرا الشحاتين " لجون جاي ، إلا أن مسرحية نجيب سرور تختلف عنها اختلافاً بينا، في مسار الحدوتة ، وفي عرض وتوظيف الشخصيات الأساسية للمسرحية ، وفي مدلولات الحوار السائد ، وإحياءات المونولوجات الشعرية ، ثم في المضمون النهائي للعمل الذي أراد المؤلف لنا أن نخرج به .

في مسرحيته ، " آه يا ليل يا قمر " ، يحدد نجيب سرور ما تعنيه شخصية "الإنجليزي" في مسرحه حين يقول أحد أبطاله : " اللي ياكل حقنا يبقى إنجليزي ، حتى لو كان نمة مصري . " الإنجليزي " في تاريخنا المصري الحديث كان هو المحتل الباغي ، الذي يمارس سلب

وهو يعلم - بحق " الشلغم أبو ديس " - أنه صاحب " هوية " ليس له غيرها : " عراقي " ، ولو دفعت له العواصف والزوابع إلى سكنى الإسكندنافية أو أي مجاهل على الكرة الأرضية من القطب إلى القطب !

